شقة 56

شقة ٥٦

رواية

سيف بدوي

مقدمة

لا تدع صباحك يأتي، وأنت مازالت في ذكريات الأمس،

يوم جديد يستحق كل جديد منك

"ما أجمل ألا يكون لديك ماضي تنزعج بشانه"

سيف بدوي

الفصل الأول:

"أن ثقتك في نفسك هي انعكاس ثقتك بالله"

يستيقظ يوسف عوض الدين و تكاد ان تتطاير من عقله بعض الخلايا لما إلم من صداع فتاك، كاد ان يخترق راسه يتذكر نداء الطبيعة في استجابه منه لألحاح عقله لأحضار أوكسجينة الحشيش ويخرج موبايله و يتصل:

يوسف: ألو.

= أيوه مين معايا.

يوسف: أصحي يا معلم انا يوسف.

= يوسف مين.

يوسف: يوسف عوض الدين يا عم.

= أيه يا جو دا وقت حد يتصل فيه بس.

يوسف: أعملك ايه يا عم محمود ما انت بقالك يومين قافل موبايلك و انا علي اخري ومستني الباشا لما يفتح تلفونه عشان يرد عليا.

محمود: معلش يا جوو اصل أنا اوفردوز و مش شايف قصادي اصلًا.

يوسف: اللي أداك يدينا يا عم محمود المهم فوق كده و أشرب قهوتك؛ انا عارف إنك ملكش في النيسكافية بتاع العيال دا، و خلص كده و ضبط نفسك وكلمني ضروري عشان عايزك محتاج اصطف ضروري لان دماغي علي أخرها و محتاج أفصل.

محمود: أوك خلاص يا جوو هخلص كام مشوار و هديك تلفون علي بليل تمام يا جوو؟

يوسف: تمام يا حوده.

محمود: عايز حاجة.

يوسف: سلام.

محمود: سلام.

ينهي يوسف مكالمته مع الديلر الخاص به وصديقه محمود يجلس يوسف علي طرف سريره و هو يتامل الفراغ بنصف عين، بعد قيامه من النوم الساعه الخامسة عصرًا بعد نومه لساعات تعد علي اصابع اليد يفرك عينيه يجلس ويتوجه إلي المطبخ بعد أن سمع صوت أمه و هي تنادي عليه.

الأم: يوسف صحيت.

يوسف: أه يا ماما عاوزه حاجه مني.

الأم: لا يا بابا انا كنت بطمن عليك بس عايز تشرب حاجه ولا أجيبلك تاكل.

يوسف: شكرًا يا ماما هاتيلي النسكافية بتاعي في البلكونة.

الأم: حاضر يا روحي .. إلا قولي صحيح انت كنت بتكلم مين.

يوسف: دا محمود صاحبي يا ماما.

الأم: أه محمود ماشي.

تتنهد أمه بصوت مسموع لكي تبدي تزمرها علي صديقه محمود.

يوسف: إيه يا ماما مدايقه ليه بس.

الأم: يا يوسف يا حبيبي أنا مش بحب الولد دا دايمًا بيكون مش مضبوط و خايفه ليكون بيديك حاجه وحشة.

يوسف: ما تقلقيش يا ماما أبنك مش صغير أنا عندي عشرين سنه دلوقتي.

الأم: برضه لو حتي عندك 40 سنه مش هبطل قلق عليك.

يوسف: شكرًا يا أمي .

و لم تكن سيجارة عادية LM يقبل رأسها و يتجه يدخل البلكونة ويسحب سيجارته إلي البلكونة وفي يده بل كانت سيجارة حشيش يقف يوسف مولي ظهرهلما تبقي من الشقة و يشعلها ليسافر من اليكس إلي بلاد العجائب دائمًا ما يفاجئه محمود بالاصطف العالي، لا يتمالك نفسه فهو يعشق هذه "النبته الحشيش" مخدر روحاني، يجعلك تري و تسمع ما تريد وقتما تريد في أي مكان تريد تذهب للتزحلق علي جبال الألب الفرنسية، أو تذهب لتصطاد من غابات أفريقيا الوسطي، أو تمارس رياضه القفز من الشلال بالبرازيلو، أو تشرب كاس فودكا روسية من أمراة ذات شعر أصفر فرنسية يجرجرك علي حرير ناعم في طريقك، أو لتتعبد في جبال التبت الصينية حتي أنه يمكنك أن يجعلك تلعب مع صلاح أو ميسي أو رونالدو في مباراه واحدة يقف يوسف ولا يعلم ماذا أتي به إلي هذه الدنيا ولا يعلم ما هو هدفة من الحياه سوي أن يشرب الحشيش وغيره من مذهبات العقل وصولًا إلي الخمر و ما تشتهية الأنفس.

يجلس يوسف و كأنه سلطان عثماني في يده ملكوت الأراضي الوسطي، ويصدر فرمانات، وتحت يده الجواري التي لا حصر لها، حتي يراها من خلف الستائر البنيه المكسوه بالحمار هي تخرج ببطئ غريب و كان الزمن يتوقف عند خروجها إلي شرفه بيتها من هي؟

لا يعلم لها من أسم أو من أي شئ سؤي أنها ملاكه الحارس يرتسم علي وجهه إبتسامه تكاد تلامس أذنيه و يتخيلها مرة قديسة عصية عليه و يتخيلها مرة أخري راقصة، ترقص لمن يدفع اكتر ولكن! في كلا الحالتين هي ليست له تخرج و هي تقف ليست مبالية بمن يقف في مواجهتها لم تلاحظة وأن لأحظتة تهرول سريعًا إلي الداخل ويهرب معها قلبه خرجت هذه المرة غير مبالية تنظر إلي الأضواء الشارع البراقة التي تجذب العيون كسيرك اسكندراني في أوج لحظاته تلقي نظره جامده بارده علي شرفة يوسف الشاب المضيع الذي لا يعرفه احدًا عنه شئ و لو حتي كليته فهو غير مبالي بالحياة ولا يعتبر نفسه من أهل الارض فهو راهب ناسك في غرفته، ولا يخرج منها إلا لمقابله بعض الاصدقاء للجلوس علي القهوة أو الذهاب إلي البلاستيشن حيث نظرت اليه وتملئها أسئله:

لو زرعت علي أهل الأرض لما فرغوا من أجابتها مئات السنين إلقت نظرتها المعتاده ودخلت، وظل يوسف يرمقها من خلف عينين لا يعترف بوجودهما إلا وقت الضرورة فهو يعتبرهما نافذتين يغلقا وقت الضرورة وأحيانًا لا نستخدمهما ألا لزياده معاقبه النفس والنظر الي أشياء لن تاتي لنا يومًا ما أنهي يوسف سيجارته العتيقه، ودخلت امي كوب النيسكافيه إلى الشرفه قائله:

الأم: يوسف عشان خاطري نبطل شويه سجاير عشان صحتنا يا حبيبي وبلاش علي غيار ريق كده.

يوسف: حاضر يا ماما بس بجد خايفه علي صحتي ولا خايفه من بابا لما يعرف ان بشرب سجاير ويحرمني من المصروف.

الام: يوسف بابا بيحبك ماتظلموش ياريت، حاول تكلمه لما يرجع و هو راجع كمان أسبوع عشان يعرف انت عملت ايه في الثانوية العامة.

يوسف: يجي بسلامه يا ماما.

الام: يارب يا حبيبي مش عايز حاجه مني بقا انا هروح عند تيته عشان هي تعبانه شويه هقعد معاها حبه ولو التلاجه مليانه أكل ماشي يا حبيبي.

يوسف: ماشي يا ماما سلميلي علي تيته جامد اوي.

الام: يوصل يا حبيبي.

تخرج الام من البلكونه متجهه إلي باب الشقة مغادره أياها ورجع يوسف متجهه إلي الحمام ويقف يوسف أمام مرأه الحمام يتفحص التاتو علي ذراعه الأيسر، والصليب الذي نقشه عليه لما يجد فيه منتحفه وقطعه فنيه ليس لها مثيل وينظر إلي باقي جسمه فيوسف شاب متوسط الطول لا يتعدي 174 سم، موشوم بعده أوشام ابرزها الصليب علي ذراعه الأيسر، وجمله علي صدره كتبت ب دقه و حرفه و تقول:

((عندما أسير في وادي ظلام الموت وحدي لن أخاف فهو جانبي))

ويري ايه الكرسي علي ذراعه الأيمن كامله كل حرف بها تظن انه خلق لهذا المكان علي جلد يوسف ولديه ندبه خفيفه علي حاجبه الأيسر نتيجه لعراك قد دار بينه وبين ابن ناظر مدرسه الثانويه نظرًا لتعديه عليه بالألفاظ النابيه، مما إدي إلي بيوسف أن يحطم صف سنانه العلوي وخرجت بيوسف بهذه الندبه الخفيفه وكان يوسف من المحبوبين في مدرسته الثانويه وكان له من ألاصدقاء مالًا يعد ولا يحصي و لكن يوسف كان له عالمه الخاص عالماً لا يجرؤ احد علي اقتحامه إلا القريب منه فقط، فله عده اصدقاء لا يبوح لاحد غيرهم بسره، يجتمعون دائمًا في بيت يوسف لتناول كل ما لذ وطاب من انواع المخدرات إنجز يوسف ما كان يفعله وخرج الصاله مشغلًا اللاب توب الخاص به وتشغيل قائمه الاغاني الخاصه به..

ويقوم بزياده مؤشر الصوت الي درجه وصوله إلي من في الطابق الأعلي من عمارته المكونه من 10 أدوار يجلس يوسف و ينتظر، ثم ياخذ الاب الخاص به إلي غرفته حيث هي قبره الأختياري، غرفة لا يطاهًا انس ولا جان، محرمه حرمه الدماء لا تشعر وانت بها سوي بالموت القريب مظلمه ظلمه البحر الهائج في شهر يناير هائجه بكل تفاصيلها، لا يدخلها إلا هو تكاد الكائنات الحيه بداخلها ان تختنق من دخان سجائره و ان لم تختنق من الدخان تختنق من الظلام.

يدخل يوسف، ويجلس في مواجهه شرفه غرفته معليًا صوت اللاب توب علي اغنيته المفضله حيث يغلق يوسف عينيه لبرهات و ينتظرو ينتظر حتي تصدح الفرقه بكلماته و تسحبه الكلمات و اللحن الي عالمه الخاص؛ عالم يوسف عوض الدين تصدح الفرقه الكلمات والصوت حتي يصلالي عنان السماء؛ تسمع به الملائكه السماء السبع، تشتبك مع الارواح الذاهبه إلي ربها تتسابق معهم و كأنها في مارثون أوليمبي تنعق وتنعق حتي تنتهي الأغنيه، و تعود مرة أخري بفرقه أخري تتسابق مع سابقتها في الوصول بيوسف إلي الجنون: جنون عذب يعشقه يوسف بكل تفاصيله، يشعل آخر ما تبقي له من سجائرة "الملفوفه" يذهب في رحلة لا يعلم نهايتها ولكنه يعلم أنها سوف تشارف علي الانتهاء عند انتهائه من السيجارة يتخيل يوسف نفسه في صحراء جرداء سائر بلا هدف يبحث عن ما يتعلق به حتي يكون إنسان من لحم و دم و يعرف بقيثاره الحزن ترانيم السلام الأيدي، ترانيم الموت الذي

بعده تبتدي الحياة، لا يكترث بماء أو طعام فقط يسعي للبحث عن هدف يجعل منه انسانًا يأتي من الغراب صديقه الوهمي ليقف علي كتفه و يزعق بصوته ليصبح رفيق يوسف الوحيد في هذه الرحلة.

يكمل يوسف سيره في هذه الصحراء مرددا الشعر:

"أيتها الملائكة إذهبي إلي حواف الجنة وأنتحري ليحل محلك الزبانية"

يصمت يوسف الذي عاد إلي الواقع إلي غرفته إلي عالمه الخاص ويتنحنح يوسف ويعتدل في نومه حيث غلب النوم رحلته الوهميه، أخرج من نوتته التي كان يدون بها أهم افكاره فهو كان معنوناً لهذه النوته بـ "ترانيم زبانية الجحيم" و في وسط السطر فيصفحه صفراء جديده كتب يوسف:

"أنا ملاك نزلت إلي هذه الدنيا بحثًا عن السعاده حتي لم اجدها حيه، وجدتها فقط مع الموتي، وجدتها فقط في زبانية الجحيم فأنا ملاك، بكل ما خطيئه ارتكبتها علي وجه الأرض تحولت إلي شيطان من شياطين الحجيم حيث فالنهاية مطافي وجدت "السعادة المطلقه".

أغلق يوسف نوتته وذهب في سبات عميق ولم يوقظه منه سوي تيليفون من صديقه محمود.

محمود: الو.

يوسف: مين؟ بصوت متهدج لم يخرج من فمه في المرة الاولي .

محمود: الو مين ايه يا عم صباحو يا جوو انا محمود يا عم و فالح بس تصحيني من النوم وعايزك و فوق وظبط وكلمني واكلمك الاقيك ميت أصحي يا عم معايا خميره النهارده عجب هتنسيك مقاس بوكسرك.

يوسف: الله يحرق صحوبيتك أوك هضبط حالي وأرنلك تنزلي أنا والعيال علي كافيه "دولسي لا فيتا" اللي بعد كوبري الجامعه عارفة.

محمود: أه يا عم مش دا الكافيه اللي بيعد عليه الواد عادل الطري وشله بنات صحابه.

يوسف: أيوا هو دا هكلم الباقي وهننزل أشطا.

محمود: أشطا.

يغلق يوسف الخط ويكتب رساله نصيه إلي والدته يخبرها من المنزل وأنه أخذ نقوداً من دولابها لترد عليه بأن جدته مريضة وستجلس أسبوع لتراعاها وسوف تحضر له الطعام كل يومين.

يري يوسف الرساله في غير اكتراث ، ليرد عليها برد متصنع:

"ماشي يا ماما خلي بالك من نفسك ومن تيته وسلميلي عليها جامد"

يذهب يوسف ليرتدي ملابسه الواسعه فهو ليس من هواه الملابس الضيقه فهو له استايل خاص به يرتدي يوسف ويتصل بصديقه أحمد وحسام.

يتصل بحسام اولا:

يوسف: الو يعم أنت فين.

حسام: أيوا يبني انا ف البيت ومسقط.

يوسف: طب أنزل علشان فيه استاف النهارده.

حسام: أوك هفوق وهكلمك...هتروح فين؟

يوسف: دولسي اللي بعد كوبري الجامعة.

حسام: اوك.

يوسف: سلام.

يغلق الخط ويدور حوار مع احمد بنفس التفاصيل ثم يخرج بعد ذلك.

يعيش يوسف في مدينه المنصورة وهو طالب ثانوي عامة يقضي معظم أوقاته بين البيت والنوم أو كافيهات المنصوره المنتشره انتشار أطباق الدش علي أسطح بيوت منطقه عشوائيه.

ولكن يوسف له زوق الخاص في اختيارها، يستقل يوسف التاكسي ويدور حوار ممل رتيب بينه وبين السائق في غلاء البنزين والكهرباء ليصم يوسف أذانه ويكتم السائق كلمات لاذعه:

يوسف: أسطا لو هتتكلم فالسياسه نزلني علي جنب.

السائق: لا يا بيه ملعون أبوها.

يوسف: تسلم يا أسطا.

يوسف: معاك دولسي لا فيتا.

السائق: حاضر يا باشا.

ينزل يوسف من التاكسي غير مهتم بالطريق يتمشي بحذر ولا تظهر في قدمه العرجه البسيطه التي لا تري بالعين المجرده جراء حادثه حدثت له أيام الطفولة عندما كان في العاشره من عمره حيث جعلته الحادثه لازمًا للفراش فالجبس وغيره لمده عام ومتابعه نفسيه لمده لا تقل عن سنه ونصف حيث فقد فيها ذاكرة الطفولة بسنه العشره ليصبح يوسف أكبر طلاب الثانويه العامه بين أصحابه ويدخل الكافيه ويجلس علي إحدي الطاولات غير مهتم بالبنات التي حوله كذباب وتجمع علي قطعه حلوي فمن لا يعرف دولسي لا فيتا:هو كافية مفتوح في مكان بعيد عن زحمه المدينه يتجمع عليه قوم المنصورة من بنات الجامعات وغيرها من الشلل المختلطه.

يجلس يوسف ويتصفح كل من حوله في ازدراء ليخرج سماعات ويضعهما في اذنيه منفصلًا انفصالًا تامًا عن العالم ذهب بعقله الي شرفه منزله فرغبه لتذكرها ملاكه الحارس الذي جعل من قبله الصدأ كدبابة روسية قديمة تركت فالعراء لتصدأ من وقت الحرب البارده كأنه سكينصلد في بندقيه أحد جنود الامركيين في العراق تجلد عليه الدم فصدا قلب لم يعرف للحب مصطلحًا ولا يعرف سوي مشاعر الكره والبغضاء لما حوله، فهي عندما نقلت الي حيهم الراقي انقلب حال يوسف رأسًا عقب متبدله حياته فلعنها ولعن اليوم التي جاءت فيه الحي الذي يسكن به فهو كان راضيًا بما فيه حتي وصولها..

يفتح يوسف عينيه ليجد صديقه حسام أمامه ومعه محمود وجاء أحمد متأخرًا كالعاده قائلًا:

أحمد: ايه يا رجاله نفسيتكم كحلي النهارده الخميس عاوزين نظبط الدنيا أنا خرمان.

محمود: خرمان بذمتك واحد جايب في الثانويه العامه 97.5% ويقول خرمان أنت جبت المجموع دا ازاي.

أحمد: زي السكر ف الشاي.

محمود: ملعون اللي يكلمك تاني.

أحمد شاب في الثانويه العامه يعشق البنات بكل اشكالهم بكل لغات العالم وهو سنجل طيب ولكنه ذو طبع سريع الوتيرة يعمل والده مع والد يوسف في الخليج في شركه بترول كبيرة، يدر ابوة عليه المال الوفير.

أحمد: أما أنا ياض يا يوسف لقيت بت إنما أي كرباج من أسكندريه واحتمال أروح لها يومين هاا راشق؟

يوسف: لا يعم فاكس أنا الحوار دا شوف الرجاله.

محمود: ولا أنا هاجي معاك أشطا أنا راشق بشفاطه.

أحمد: وأنت يا حسام؟

حسام: سيبني أفكر.

حسام شخصيه صامته إلي أبعد حد وهو أقرب الأشخاص إلي يوسف في الشله، توفي والده منذ اكثر من 10 سنوات في رحلة له حيث كان يعمل طيار بإحدي الخطوط العربيه وترك ورث له لا يحصي ولا يعد، له أخت واحدة يخاف عليها، دائم الشكوي لوالدتها منها ومن ملابسها، وفي معظم الاوقات لا يري امامه من المخدرات التي يتناولها مع يوسف بعد أخذها من محمود أما محمود فهو اقلهم في المستوي المادي قليلا، تعرف عليهم فإحدي حفلات الساحل الشمالي وأصبح صديقهم المقرب حيث كان يكبرهم بسنتين ولكنه في مثل عُمر يوسف أو حتي أكبر بشهور، ينسحب حسام من الطرابيزه ويذهب ليوسف...

حسام: عايزك يا يوسف.. أيه في أيه ياض مالك؟

يوسف: في أيه ياض.

حسام: أنت مش عاجبني ياض مالك كدا فيك أيه متغير مش يوسف بتاع زمان.

يوسف: مالي يعم في أيه مانا علطول كدا أيه اللي أتغير فيا معدش بيطلعلي دقن.

حسام: ظريف لا بس البت شغلت دماغك أيه يا صاحبي وقعت ولا أيه دا أنا مش بثق إلا فيك حوار البنات دا أنت استاذ بالرغم أنك مكلمتش بت قبل كدا بس معرفش بتفهم شخصيتهم أزاي و ياما اتحايلت عليك وكان في مزز يحلو علي حبل المشنقه هيموتو ويكلموك أو حتي أنت تبصلهم يجي علي آخر الزمن حته بت تيجي توقع يوسف عوض الدين لا دا الزمن اتغير.

يوسف: بص يسطا الموضوع دا مش هينفع نتكلم فيه قدام العيال عشان دول عيال شمامه واحد علطول مقضيها والتاني مش بيفوق اصلًا عشان يعرف هو في كليه ايه بكرا اكلمك تجيلي نرفع الدخان ونتكلم أشطا؟

حسام: أشطا يسطا.

محمود بصوت عالي: أيه يا كابلز أنتو واخدين بعض عن حب عايزين ننجز يلا بقا.

يوسف: حاضر يا مستر جايين.

يجلس الجميع ويحكي كل منهم يومه وكيف سار وظروف الحياة ويتفقون علي نفس المعاد غدا ولكن في مكانا لتتوالي جلسات الانس والفضفضه ما بين حديث عن بنات احمد ومحمود حديث عن الاستافات ومشتقاتها من حسام ويوسف.

* * *

الفصل الثاني:

"الملاك الحارس"

يدخل يوسف إلي الشقه وهو يحمل من التعب ما لا يتحمله شيال في محطه مصر، بعد معاناه منه لأخفاء قدمه التي بها عرجه خفيفه فهي تسبب له جهد غير عادي، فهو يجاهد لاخفائها كمجاهده جندي روماني قديم، يستلقي يوسف الكنبه التي ترسو بصاله شقتهم التي ليس لها ملامح ويجلس ليعطي جسده بعض من الراحه أمام التلفاز فهو من هواته منذ صغره ويحبه حبًا شديدًا ولكن السنوات القليله الفائته لم يعد يهتم سوي فقط بمتابعه الافلام الاجنبي وقناه الاهلي والقنوات الرياضيه ومعشوقته الخاصه قناه ناشيونال جيوجرافيك فيوسف لا يعشق في قنوات التلفزيون سوي هذه القناه لا اعلانات ولا مجاملات، لا يوجد بها مذيع لا يجيد الكلام قناه يعتز يوسف بمشاهدتها وبعد أن فتح التلفاز أخذ يقلب في القنوات ذات اليمين وذات اليسار في محاولاه جاده لتذكر رقم القناه وجدها اخيرًا، ليضع الصوت علي وضع صامت وينظر إلي عالم البحار تاره و إلي الغابه من تاره أخري ولكن ما يهواه هو البرامج عن السجناء و حياه السجن لطالما غوته تلك البرامج فهو يعشق تدفق الأدرينالين في جسده و ثورته و فوران جسده بالمشاعر وبعد أن غلبه النعاس قرر ان يدخل غرفته وفي محاوله بائسه يخرج مفاتيح غرفته ويدخلها قبره الاختياري: نموذج من الدرك الأسفل من النار و يجلس علي طرف السرير ليتحسس قدمه المصابه ويتذكر الحادثه ويتذكر والده يتذكر كيف كان سعيدًا جدًا بعد العوده من رحله الصيد مع أبيه عوض الدين وكيف كان الأمر كله برمته يتجه إلى كارثه لولًا تدخل أبيه في الوقت المناسب كان الوقت في شتاء يناير القاصي والطرق مبلله ومنزلقه ليجد عوض أمامه سياره أخري في عكس الاتجاه وفي محاولة بائسه في تفاديه انزلقت الاطارات الاماميه للسياره مسببه للحادثه وعند قرب الاصطدام يغلق يوسف عينيه و يذرف دموعًا ساخنه علي وجنتيه في تذكر لما حدث ولكنه يمسحها مسرعا في محاوله منه عدم الظهور بشخصيه ضعيفه أمام نفسه ثم يخرج يوسف نوتته المحببه اليه ويري العنوان "ترانيم زبانية الحجيم" ويكتب:

"إلى صديقي الموت...

إلى متي ستظل في غفله عني.. فأنا من اريدك.. ولكن أنت من تبخل علي بالزياره..لماذا تختار من هم أقل منك في القوه؟ لماذا لا تواجهني أو تواجه أمثالي؟ لماذا لا تريد أن تعترف بخوفك بمن هم خلقوا ليكسروا قوانين الطبيعه الست ممن تهواهم؟ الست ممن تريد أن تضمهم إلي سجلك الحافل بالطيبين؟ أرجوك يا صديقي لا تبخل علي بالزيارة فانا مشتاق إليك أشتياق الحبيبه لحبيبها الغائب منذ سنوات و إلى أصدقائي الموتي لقد تحررتم من لا يرحمون فالدنيا أصبحت مثل الجحيم، دركات ودركات من الغائبين الحاضرين المذنبين أفرحوا أيها الموتي فأنكم قد تحررتم."

ينهي يوسف كلماته هذه و يتذكر بعض مشاكل أصدقائه فيوسف صديق مخلص لكل من حوله و الكل يتمني أن يصبح معه إلي الابد فهو دائما ما يحاول نصحيه أصدقاءة عند وقوعهم في مشكلته: فهذا لا يستطيع أن يعترف لحبيبته وهذا اهله يضيقون عليه الحياه وآخر لا يستطيع شراء ما يحلم به، فيساعد الجميع ولكن يوسف من يكون الي جانبه؟؟

هو وحيد في عالمه الخاص لا يري ولا يسمع ولا يتكلم يسير دائمًا كزومبي في أحد أفلام الاجنبيه لا يشتهي إلا الذهاب إلي بعيداً عن هذا العالم الحقير لا يتذكر طفولته ومن منا لا يستطيع محتملًا لا يتذكر شيئًا من طفولته ألا يتذكر العشر سنوات الاوائل في حياته وحيد يحس يوسف في هذا الوقت بساريه من النمل تسير في قدمه معلنه حاله خمولها ينفضها يوسف نفضه كادت أن تخلع قدمه من ساقه يحررها و يتركها تسقط حتي ظن أن

قدمه ستلامس قاع الجحيم وفي غفلته هذه يسحبه النوم إلي أعماقه السوداء متذكرًا مالا يحب، بعد أن شعر بصداعه المعتاد في جانب رأسه الايمن ويذهب في طاعه عمياء للنوم، و يستجيب اخيرًا لالحاح جسده عليه فيطلبه للراحه ينام و في وسط نومه يتذكرها فيوسف من القله المختارة علي الكوكب التي لا تحلم فيوسف لا يري إلا شاشه سوداء قبل نومه و كأنها سينما تسعيناتي لا يري فيها سوي السواد و عمق البحر الهائج كأنه فيلم حصري لا يعرض إلا له هو فقط، يوسف عوض الدين يتذكرها وسط كل هذه العوائق و هي "ملاكه الحارس" لا يعلم لها أرضًا ولا يعلم لها أسمًا فقط هي في خياله تقف كل يوم في

شرفتها (البلكونه) تنظر إلي الشارع العريض الملئ بالأضواء و فجاه ينتفض يوسف من النوم مفزوعًا لما قد آلم به من صداع نصفي كاد أن يكسر دماغه يصرخ يوسف صرخه وكأن روحه تتمزق وكأن الملائكه السبع قد صموا عنها وسمعها زبانية الجحيم يجلس في نصف جلسه بجسده الشبه عاري إلا من قليل يقوم متحاملًا علي نفسه في محاوله الوصول إلي الحمام ليقوم بطقوسه المعتاده التي دائمًا ما تنتهي بوقفه مع نفس أمام المراه يدخل إلي الحمام في محاوله لأزاله آثار الدموع من عينيه التي لا تستطيع أن تميزها من الهالات السوداء التي لا تقدر عليها ازالتها أغني مساحه التجميل لموديل رشيقه فيه حفل توزيع الاوسكار و يقف أمام المراه ينظر إلي جسده المبلل بالنوافض ما تكفي لجذب انتباه عسكري مرور في رمسيس ينظر إلي أوشامه إلي الصليب الذي يعطي له وقار وهيبه فوق وقاره ولا يعلم أحدًا لماذا نقش يوسف ذلك الصليب علي جسده ولكنه متيقنًا أنه في يوم من الأيام سيكشف عنه وينظر إلي نفسه في شفقه غريبه فيوسف هذه الأيام يشعر بشعور مختلف يحس أنه متغير، لا يدري كيف وصل به الحال إلي ما هو عليه لا يدري كيف ولا متي ولا أين تغير كل شيء بعد الحادثه ينظر يوسف إلي المراه لا يعرف من يواجه في الناحيه المقابله؟

مسخ؟ لا يؤمن بشيء سوي نفسه لا يعلم إلي متي سيظل في تلك الحاله يخرج يوسف من الحمام ويشعل سيجارته المحببه ويجلس في صاله ويتذكر والدته الحبيبه يحبها فعلًا ولكنها لا تفهمه، لا احد يفهمه يتذكر والده وانه سوف يرجع في آخر الاسبوع لكنه غير مكترث فألعلاقه بينه و بين والده اندثرت و أصبحت سطحيه بعدما ما حدث، لن تعد تجمعهما صله الأبوه المعروفه فالعلاقه أصبحت المال الذي يرسله عوض إلي يوسف كل شهر وبعض النصائح التي لاتسمن ولا تغني من جوع، حدث نفسه قائلا:

"أقف وكان علي رأسي الطير لا أعلم لماذا وصل الحال بيني و بينه إلي تلك الحاله، ولكن في أغلب الاوقات أقول هذا أفضل لي و له فأنا لست أنسان جيد في الاستماع إلي النصائح ولا أعمل بها كثيراً قد لقلتها اولأني لا أريد من أحد أن ينصحني! فعندي نفسي انصحها بما فيه خير لي فلا أحد يهتم بي ولا أهتم بأحد فأنا لنفسي ونفسي لي لا يملكها سلطان ولا يقترب منها إلا كل عزيز وأحيانًا العزيز هذا يكون بناري فأنا مثل النور

الازرق الذي يجذب اليه الحشرات من البشر و عند أقترابه أكثر من اللازم يحترقون ليس عندي عزيز إلا من رحم ربي فيوسف كان من البشر غير المكترثين سوي بنفسهم ليس أنانيه ولكن بُعدًا عن البشر الذين أصبحوا بالنسبه إليه كائنات لزجه ليس لهم إي تاثير علي حياته و في وسط تفكيره يسمع صوتًا غريبًا علي أذنه فهو لم يتهد إليه من زمن بعيد أنه صوت اذان العصر يجلس يوسف ويطفيء سيجارته لا يعلم لما فعل ذلك؟ (اهو احترام للاذان أم هو فقد الرغبه في اكمال السيجاره؟) لم يذق يوسف طعم الصلاه منذ مده كمده سجن نيلسون مانديلا وازداد عليهم تسع، فكلما يسمع الاذان يحس بشيء من الرهبه المخيفه داخله ولكنه لا يكترث لها ليكمل ما بداه يخرج يوسف إلي الشرفه ويشعل سيجاره اخري وينظر إلي يساره: إلي بيت الملاك الحارس لا يعلم ماذا دهاه؟ فيوسف ليس من الذين يقعون في الحب فهو غير مؤمن به ولكنه عندما رآها لا يعلم ماذا أصابه؟ اهو فيروس الحب؟ أم هو أعجاب بالملاك الذي لا يمكن ان يكون قد خلقها الله عبثا؟ فهو وضع بها كل لمساته الفنيه الجميله لتخرج إلي العالم بهذا الشكل غير متاح لامثالي فأنا قد تحولت إلي شيطان منذ أمد فكيف يجتمع السلالتين؟ فبغض النظر عن تشكيلها الجسدي والنفسي كيف يجتمعون في المشاعر؟ قرر يوسف في قراره نفسه شيئًا لم يكن في يوم يعتقد انه سوف يفعله وفي مشاوره مع نفسه استغرقت أكثر من نصف ساعه كأنه مفاوض امي يضع خارطه الطريق قرر أن يقوم بما لا يمكن تصديقه وارتدي ملابسه وأشعل سيجارته والصداع يقترب من عينيه ولكنه في لا مبالاه.

يخرج إلي الشارع متجهًا إلي تكاد الابتسامه أن تكون كماركه مسجله بأبتسامه كادت أن تلامس اذنيه متجها إلي العماره المجاوره له من ناحيه اليسار يسير بخطي مضطربه تجاه عمارتها: وهي عماره الملاك الحارس يقف أمامها و يدور برأسه متاملًا الشوارع الجانبيه وكأنه يقوم بسرقه بنك من بنوك سويسرا حيث نفض عن رأسه كل ما يشعر به يتجه ناحيه بواب العماره عم سعيد.. عم سعيد رجل نحيف وطويل أسمر سمره ابناء الجنوب وجهه دائمًا شاحبًا ولا تفرقه سيجارته الكليوباترا الصينيه يرتدي جلبابًا دائمًا ما يكون فضفاضًا لا يحب اطفال شارعه ولا اطفال الشوارع المجاوره لعب الكره أمام العماره الجالس بها اهون عنده أنهيار السد العالي والأهرامات مجتمعين يسير واقفًا امامه دار بينهم هذا الحوار:

عم سعيد: يوسف بيه عاش من شافك واحشني والله يا بيه.

يوسف: الله يخليك يا عم سعيد وأنت أكتر.

عم سعيد: فينك كده مختفي بقالك كام أسبوع ماحدش بيتبارك برؤيتك ليه؟ والله الشارع مظلمه من غيرك.

يوسف: يا راجل يا بكاش.

بضحكه مصطنعه يرد عليها يوسف علي عم سعيد المتملق و لكنه فعلًا يكن يوسف بعضًا من الحب والرهبه لمنظر يوسف المختلف عن باقي الشباب.

عم سعيد: والله يا يوسف بيه بحبك لله في الله.

يوسف: وأنت كمان يا عم سعيد ها أخبار ابنك العفريت الصغير أسمه أي....؟

عم سعيد: محسوبك ابراهيم.

يوسف: اه ابراهيم اخباره أيه في سنه كام الواقتي؟.

عم سعيد: ابراهيم عقبال ماشوف عيالك في 5 ابتدائي وبيدعيلك والله.

يوسف: ماشي كنت عاوزك في خدمه يا سعيد وعارف أنك الوحيد اللي هينفعني.

يخرج يوسف من جيبه علبه سجائر وترافقها ورقه فئه عشرين جنيه ويدرسها في ايد عم سعيد.

عم سعيد: ايه ده بس يا يوسف بيه خيرك سابق والله.

مل يوسف من الحوار الطويل الذي لا يدر بفائده حتي الان.

يوسف: عم سعيد أنت تعرف السكان في الدور الثالث شمال الشقه بتاعتنا عارفها.

عم سعيد: اه متقول كده من الصبح يا عم يوسف فهمتك يا نمس.

بضحك عم سعيد في نشوه بمعرفته ماذا يريد يوسف ويضحك يوسف من تلقائيه عم سعيد ويقول له:

يوسف: ها تعرفها ولا اشوف حد مكانك البوابين كتير.

عم سعيد: يا عم يوسف عيب علي الطلاق ما حد يعرف يجبلك ارارهم غيري.

يوسف: ها يا عم تعرف عنهم ايه؟.

عم سعيد: بص يا سيدي الدور ده ساكن فيه الأستاذ محمود محمد الفناجيلي في شقه 56 و هو أصلًا من القاهره ده راجل محترم أوي كان عايش هو وعياله في القاهره ونقل المنصورة بعد وفاه زوجته أستاذه منال وهو أصلًا شغال في شركه اتصالات كبيره اوي بسم الله مشاء الله مبسوطين بس مش بيظهر كتير ولا هو ولا ولاده الثلاته.

وعندما سمع أولاده الثلاته لم يعرف ماذا ينتظره، وفي شغف كشغف طفل في ثالته ابتدائي ينتظر أمه لتاخذه من المدرسه قبل زملائه انصت و قال:

يوسف: ها مين ولاده الثلاته يا عم سعيد؟!

عم سعيد: بص يا سيدي الاستاذ محمود عنه 3 عيال بنتين و واد لسه صغير لسه فيه رابعه ابتدائي امال عنده اللهم صلي علي النبي...

وأخذ يحك راسه و كانه يتذكر و يوسف أمامه تضحه اعينه و ينتظر منه الرد.

عم سعيد: اه والكبيره حنان عقبال عيالك كده في كليه القاهره و بتروح هناك تذاكر و ماتسيبش كليتها و هي طويله حبتين و بيضه و مليانه حبتين ومحترمه أوي.

يوسف: كويس.

أشعل يوسف سيجاره وأشعل أخري لعم سعيد وشكره عم سعيد وأسرد:

عم سعيد: والبنت التانيه يا عم يوسف الاء بنت كده زي ما تقول عجيبه مابشوفهاش ألا والضحكه مرسومه علي وشها كنت بشوفها اول مرة ما جم دايمًا بتصبح عليا وعلي أم

ابراهيم ودايمًا بتحب تلاعب الواد ابراهيم مع اخوها الصغير بنت محترمه اوي و متدينه جدًا وخجوله ولسه مخلصه ثانويه عامه يارب يرزقك بواحده زيها يا يوسف بيه.

اطلق عم سعيد رصاصه بتلك الكلمات و يوسف في محاولاته في أجماع قلبه الذي إنكسر وتفتت الي مليون قطعه ثم جاوبه و يقول:

يوسف: كمل يا عم سعيد

عم سعيد: اه يا سيدي واخوهم الصغير أكبر من ابراهيم يجي بسنتين ودايمًا يلعب معاه.

يوسف: وهو بس كده يا عم سعيد.

عم سعيد: لا يابني بص البنتين باين عليهم انهم قريبين من بعض أوي عشان دايمًا بيخرجوا مع بعض والبنت اللي اسمها الاء الوسطانيه دي دايمًا بتقف في البلكونه الساعه3 العصر مش عارف ليه، و كل يوم خميس تخرج مع اختها واخوها الصغير يتفسحوا وابوهم ساعات بشوفه ينزل يقعد علي القهوه اللي جنب مديريه الامن وكنت بشوفه لما كنت باجي نازل العباسي.

يوسف: ماشي يا عم سعيد.

والفرحه تكاد ان تقفز من عينه.

يوسف: الخدمه الاخيره بقا عاوزك تعرفلي بتروح فين و هتخش كليه ايه وليك الحلاوه بس واللي خلقك لو عرفت إن الكلام أتسرب لحد صاحب العماره هيعرف أنت بتعمل أيه و مش هرحمك.

ويضم يوسف حاجبه في ضيف مصطنع و ينفجر ضاحكًا:

عم سعيد: يا عم يوسف عيب عليك دا العشم برضو والله ازعل ده كفايه خيرك اللي معرفني أنا و الواد.

يوسف: خلاص هتعشم فيك خير المرة دي.

عم سعيد: ماشي.

وفي إثناء حديثهم قاطعتهم رنه موبيل يوسف المزعجه برقم حسام أجاب يوسف التلفون مرددا:

يوسف: إيه.

حسام: يا جوو فينك..أيه يبني احنا مش متفقين أن أنا هجيلك النهارده ايه فاكس ولا ايه؟

يوسف: لا ياعم حسام اشطا انا في مشوار جنبنا وجاي البيت حالًا.

حسام: مشوار ايه! مشواار ايه!!

يوسف: اتك علي الصبر شويه يا حس ولما نتقابل هرسيك علي الحوار كل....

صمت يوسف وكأنه وقع في بئر ليس له نهايه، صمت وكأنه تمثال ابو الهول لا فرقه عن لماذاا؟ لانه رأها الان ويعلم بأسمها مالك لا يستطيع أحمد بيك شوقي ولا صالح جاهين أن يصف جمال هذا الكائن الملائكي، تكاد أن تضئ بنورها الخافت مرة من أمام يوسف وهو يقف إلي جانب عم سعيد وحسام معه علي التليفون احس بصمت رهيب وبرغبه في الطيران حتي برز له جناحان من الفرحه يقف أمام كل هذا الجمال الذي لم يخرج مثله للعباد لا يعلم يوسف أهي حقيقه أم وهم لا يدري ماذا يفعل أو ماذا يفكر أو.... اسئله كثيره خيمت علي المشهد.

قاطعه صوت حسام وهو يسبه بأفظع الشتائم لتركه علي الموبيل وعم سعيد يهزه ولكنه لا يهتز تستمر في الأرض كأنه مسمار صدئ في كرسي قهوه من الثمانيات، طبعت هي علي عقله ملامحها بلا هواده ككرباج سوداني قد نقع في الزيت لمده أحتلال الجزائر ضربته به لتبقي عقله متيقظا ولتبقي عقله متذكرا لها وكيف أن ينساها وهي من اعادت الي الصفيح الصدئ الذي بجانبه الأيسر الحياة أفاق من شروده ومن نشوته واجاب يوسف علي حسام قائلًا:

يوسف: أقفل ياعم الوقتي وتعلالي علي البيت كمان نصايه.

لم يكتمل حسام حديثه وأغلق يوسف الخط قائلا:

يوسف: شكرًا يا عم سعيد.

ينطق وكأنه مغيبًا وكأنه منوم مغناطيسي من ساحر مغربي عيناه مثبتتان علي نقطة اللارجوع عيناه مثبتتان علي الاء اخذ ينفث دخان سيجارته ببطئ حتي أحس بتغلغل الدخان الي داخل قفصه الصدري، انتهت النشوه من اللقاء وبدأ يعود يوسف إلي الحياه الواقعيه وتذكر حسام وموعده معه، وانطلق هائمًا لا يعرف ماذا حدث له دخل إلي الشقه تملئ ب سعادة قلبه في مره من المرات التي يبتسم فيها الحظ له ويرزقه هديه لا يعلم تبعات استلامه لها: استغير حياته إلي الأحسن؟ وما هو الأحسن بالنسبه ليوسف سؤال من الاسئله المحرمه سؤالها مثل كيف خلق الكون، هل سيبقي يوسف علي حاله وينتظر موعد الموت البعيد بعد محيط القطبي الجنوبي؟

يعود يوسف إلي ارض الواقع وسيجارته ذبلت كذبول ورده في فصل الخريف ايعقل؟؟! وفي عز خلوته مع نفسه قاطعها جرس الباب ومن وراء الباب حسام اللعين.

يوسف: تبًا لجرس الباب وتبًا لحسام في يوم واحد وتبًا لمخترع الابواب يقوم يوسف متحاملًا علي قدمه المصابه و بعوده الصداع النصفي إليه، لعن اليوم ولعن من كان السبب في حدوث تلك الصدفة و فتح يوسف الباب ليجد حسام مبتسمًا ابتسامة صفراء ليفهمها يوسف.

يوسف: خش يا عم ومتلوكش كتير.

حسام: أيه يلا أنت خيبت خالص ايش حال أنا اللي مكلم أهلك امبارح والنهاردة عشان أشوفك مالك معايا اصطباحه عنب هتخليك تعدي المتوسط وإنت بتقلع البنطلون.

يوسف: هات يا ابن الشيطان.

ناوله حسام سيجاره محترمه المعالم متباينه التضاريس لا تعلم لها بدايه من نهايه وجلس يوسف وحسام وهم يحتسون النيسكافيه و السيجاره المتلغمه.

يوسف: بلح ياض يا حس تسلم الايد اللي لفت الجوينت دا تسلم.

حسام: عشان تعرف بس إنك حبيبي.

يوسف: حبيبك ايه ياض ماتظبط.

حسام: دايمًا كدة حادف شمال.

حسام: المهم طمني عرفت حاجة عن الحورية الهربانة من الجنة اللي غلبت يوسف عوض الدين.

يوسف: اسكت ياعم بأرك دا.

امتعض يوسف في محاوله لأختبار حسام.

حسام: ايه ياعم إللي حصل قول.

يوسف: عرفت كل حاجة عنها.

ضحك يوسف بهيستيريا ساعدته فيها صديقته سيجارة الحشيش ضرب حسام يوسف بنصف قبضة علي صدره.

حسام: دا أنت عيل رخم إحكي ياعم جوو.

يوسف: روحت ياعم لسعيد اللي شغال بواب علي عمارتهم وقالي كل حاجة عنها البت متدينة وهادية ونجولة وكمان مؤدبة والمصيبة قدنا في ثانوية عامة بس أنا طبعًا أكبر منها.

حسام: طب ماتسيبلي الطالعة دي يلا.

يوسف: ولا أظبط الحوار دا فاكس ماتكلمنيش فيه كده.

حسام: أوبا يوسف عوض الدين وقع يا بشر لا واحدة واحدة كده علي عمو وقولي شفتها.

حسام: أمال لما كنت بكلم أهلك و مرديتش دا ليه؟

يوسف: مأنا كنت شايفها و بعدين أوقاتك زبالة زيك.

حسام: ياعم معلش كمل كمل.

يوسف: بس يا سيدي بتخرج كل خميس مع أختها الكبيرة و أخوها الصغير أبوها بينزل يقعد علي القهوه اللي جنب المديرية يوم و يوم وأمها ميتة وأختها الكبيرة مش عارف في كلية ايه البواب الرغاي.

حسام: ماقلش حاجة تانية معرفتش رقمها القومي بألمرة في إيه ياعم يوسف أوعي يكون إللي في بالي. ينظر يوسف لحسام في لحظة تردد و يبادره حسام قائلا: فوق يا صاحبي.

يخلع يوسف التي شيرت الذي يرتديه و يسأل:

يوسف: هي الساعة كام معاك؟

حسام: أربعه ونص ليه؟

يوسف: طب قوم بينا نخش البلكونة.

يتمشيا حتي يصلاً إلي الشرفة ينظر حسام الوشام يوسف ويطلقها.

حسام: مجنون و الله! ايه يابني لأزمته الصليب بس إنت مش مسلم ولا أنت مجوسي ولا ايه.

يوسف: ولا أخرس بقي مالكش دعوة.

يخرجا إلي الشرفة يراها يوسف و هي تجلس في الشرفة واضعة السماعات الأذن ذاهبه الي عاملها الخاص.

يوسف: شايف ياض.

حسام: يا امي بسم الله ماشاء الله ايه دا يابني لا أنت يوم ما تقع تقع علي واحدة زي دي يخربيت أهلك بس نتكلم جد شوية.

يوسف: أرغي.

حسام: فوق يلا، إنت من امتي وكانت النظرة دي في عينيك؟ إنت نسيت نفسك ولا ايه؟ من أمتي ويوسف عوض الدين كان بتهمه البنات؟ الله يرحم ما كان بنات المنصورة كوليدج كلها نفسهم يوسف يبص لهم ولا حتي يعدي من أدامهم ويجي علي آخر الزمن بنت محترمة ومتدينة زي دي توقعك! مأنت عارف إنها عمرها ماهتبص ليك ولا نسيت؟ يوسف البت دي مش للي زينا احنا بتوع صحووبية وطلعة الساحل وصورتين علي الانستجرام وفسحتين وكان الله بسرها عليم دي يا يوسف من الناس بتاعة الخطوبة والارتباط و مش بتاعة صحوبية ولا كلام من دا.

نزلت كلمات حسام كحديد مصهور يصب داخل قلب يوسف، يزيده صلابة فبالرغم من صدق كلامه وصوابه 100%، إلا أن يوسف لا يعرف حقيقة شعوره يرد علي حسام ونظرة الضعف تكاد أن تخرج عينيه من محجريهما.

يوسف: عارف يا عم أرشيمدس نقطنا بسكاتك هننزل فين النهاردة ياعم النحس.

حسام: كلم العيال و شوف اللي إسمه أحمد والمهييس الي إسمه محمود فين ونتزل.

يوسف: هو النهاردة ايه.

حسام: الخميس.

يوسف: أبويا راجع الخميس الجاي ومش عارف هعمل معاه ايه.

يتذكر حسام والده و تظهر عليه علأمات التأثر.

يوسف: معلش يا حس غصب عني أمسحها فيا يا صاحبي.

حسام: لا ياعم عادي يجي بالسلامة.

وفي حركة مفاجئة لتلطيف الجو يفاجئ حسام يوسف قائلًا:

يوسف: إنت قولت النهاردة ايه الخميس، حبيب قلبي يبقي لأزم نشوفهم النهاردة ياسطي أنا فاكس العيال وش.

حسام: خالص ياصاحبي أشطا نفكس للعيال ونشوف اللي مدوخة يوسف عوض الدين دي.

يوسف: حبيبي يا حس.

ينتهي الحوار بينهم علي تلك ألنهاية وينتظران ميعاد خروج الملائكة الثالث لتتبعهم.....

* * *

الفصل الثالث:

"الجامعة"

يسير الوقت ببطئ ترس ساعة سويسري، لا يعلم أهذا الذي في الساعة عقارب أم سلحفاة يجلس حسام إلي جانب يوسف و ينتظران في الشرفة الملائكة الثالث، وفي ذلك الوقت يسمع يوسف مفاتيح و هي تحاول فتح باب الشقة، يطلب يوسف من حسام ألا يتحرك من الشرفة و يخرج ليري من بالباب، وإذ بها أمه تدخل عليه بحقيبة تعانقه وتطبع قبلتين علي جبينه وأخري علي جبهته.

الام: واحشتني يا حبيبي.

يوسف: انتي أكتر يا ماما أخبار تيتة ايه واحشاني هي كمان.

الام: كويسة يا حبيبي التعب كان زاد عليها شوية بس الحمدلله دلوقتي ونفسها تشوفك.

يمتعض يوسف ويبادلها اطراف الحديث.

يوسف :إن شاء الله يا ماما بس إيه الي جابك.

الام: جايبلك أكل يا حبيبي شكلك مش بتاكل هخش أحضرك أكل ماشي.

يوسف: أوك يا ماما و حضري لحسام كمان.

الام: ايه دا حسام معاك هنا.

يوسف: اه يا ماما.

الام: طب سلملي عليه.

يوسف: حاضر.

تدخل الام إلي المطبخ ويرجع يوسف إلي الشرفة.

حسام: ايه يا عم مين علي الباب.

يوسف: دي أمي، بقولك جعان؟؟

حسام: بصراحة ميت من الجوع.

يوسف: طيب أمي هتعملك معايا.

حسام: تسلم أيدها يا معلم بس الساعه داخله علي 7 ومحدش نزل من العمارة إيه من هتنزل.

يوسف: وأنا أيش عرفني يا حسام، ويقولها يوسف بأحباط.

يستشعر حسام تلك اللحظة من الاحباط ويرد عليه: حسام: ماتقلقش إن شاء الله تنزل.

الام: يوسف.

يوسف: أيوا يا ماما.

الام: الأكل يا حبيبي.

ناولت والدته الطعام إليه، و دخل به إلي الشرفة لتتبعه أمه و تلقي السلام علي حسام.

الام: عايز حاجة يا يوسف أنا راجعة لتيتة ماشي يا حبيبي.

يوسف: ماشي يا ماما.

تخرج والدة يوسف من المنزل ويبقي هو وحسام ليخططا ماذا سوف يفعلان وكأنهما موسوليني وهتلر يضعا خطة للحرب.

حسام: بص يا معلم احنا بس نشوفهم هيرحو فين وهيقعدو في أنهي كافية وارشق معاهم في نفس المكان.

يوسف: اشطة تمام بس اسمعني مش عايزين نلفت الانظار عشان مانسببش ليهم أي احراج.

حسام: خلاص امين يا صديقي.

يوسف: امين.

يتناول يوسف وحسام طعامهما ويحتسي كل منهم النيسكافيه و سيجارة لاكمال الوجبة وكأنها لا تكتمل إلا بها.

وفي غفلة من يوسف تجاه شرفتها يلمح ثلاثة أشخاص يخرجون من العمارة المواجهة لمنزله.

حسام: ولا هما دول؟؟

يلتفت يوسف مسرعًا: اه هما يلا بينا.

يرتدي يوسف ملابسه في سرعة غلبت سرعة شوماخرفي الفورميلا وان يخرجا هما الاثنان متابعين لهم ويسيران خلفهم، ولكن في الجهة الأخري من الطريق تحسبًا لرؤيتهم.

تسير آلاء وحنان وأخاهما الصغير، يستامرون ويضحكون ضحكات خافتة حتي لا يلفتا انتباه أحدًا من الحشود التي بجانبهم: و هذا إن يدل علي احترامهم الزائد.

وأخذ يدخلان المحلات المخصصة للأطفال والبنات في محاول لايجاد ما يناسبهما من الملابس والأحذية. يتبعهما يوسف و حسام من وراء ستار.

تخرج آلاء وأختها وأخيها ويتمشيا علي ضفاف نهر النيل بالمنصورة، ليشعرا بالتعب، ويدخلا إلي أحد الكافيهات الهادئة التي لم يطأها يوسف قبل ذلك بالرغم من احاطته بكل كافيهات المنصورة.

يوسف: ولا يا حسام إنت تعرف الكافيه دة.

حسام: اه ياعم بس دا هادي أوي و بتاع ناس محترمين ماقعدتش عليه إلا مرة واحدة كنت مع اختي وصحباتها.

يوسف: طب إيه نخش؟؟

حسام: استني حبة ولو مخرجوش في حدود ربع ساعة نخش.

يوسف: أوك.

انتظرا لما يفوق الربع ساعة، و بعدها دخلا الي الكافيه: مكان أنيق هادئ إلي درجة الملل، موسيقي كلاسيكية في الخلفية و طقم من "الكنب و الكراسي" الكلاسيك، لون بني هادئ يطغي علي المكان.

يدخل يوسف وينظر في كل الاتجاهات، وكأنه جندي ألماني يبحث عن ضحية سوفيتية وأخذ يبحث بعينيه حتي فاجئه حسام قائلًا:

حسام: اهم يلا بينا نقعد هناك كده بحيث نشوفهم ومش يشوفونا.

جلسا الاثنان خلف عمود مغطي بخشب مطلي بلون ذهبي حيث كانا يروهم.

جلسا يسترقا السمع منهم في محاولة لمعرفة أي شئ عنهم ليجد حسام يقول له:

حسام: البت دي غريبة أوي يلا يا جوو هي واخواتها هاديين أوي وجمال أوي، حتي الواد الصغير، و أختها الكبيرة محترمة أوي هي اسمها ايه؟؟

يوسف: الكبيرة اسمها حنان والصغيرة آلاء والواد الصغير مش عارف.

حسام: يوسف قبل ما تاخد خطوة جديدة ركز وفكر عشان خاطري لأول مرة أنا الي هنصحك بجد البنت لو عجباك بجد خد خطوة لو مفكرها زي اللي محمود يعرفهم يبقي افكس للحوار كله البنت دي ماتستاهلش كل دة منك.

يوسف: حاضر يا حسام ربنا يقدم الي فيه الخير يحس يوسف باحتياجه للمرة الاولي في حياته للنصيحة ويجدها من حسام الذي كل يوم يزيد تقربه من يوسف.

قال يوسف: المهم أنا عايز أعرف الفيس بتاعها مفيش حل.

حسام: بص أنا ممكن أخلي أختي تدورلك وتظبطك أوك.

يوسف: لا خلي أختك برة الموضوع أنا هبقي اتصرف أنا هروح أطلب لنا حاجة الويتر معرفش مش شايفنا ولا إيه؟

يمشي يوسف إلي جانبها و يذهب إلي ما يشبه ركن خاص بالمشروبات يقف عليه شاب في الثلاثينات كان هذا الركن أقرب إلي آلاء من أختها فسمعها واسترق السمع منهم.

آلاء: حنان أنا عايزة اغير اسم الاكونت بتاعي عشان مش عاجبني الاسم القديم حاسه طفولي أوي.

حنان: والله يا بيبتي كنت عايزة أقولك كدة.

آلاء: أوك هغيره النهاردة لما نرجع هخليه آلاء محمود الفناجيلي بالانجلش.

حنان: كويس كده يا حبيبتي خليكي علي طبيعتك وكمان عشان الجامعة والتنسيق لسه ليه حوالي 3 أيام وهيبان ربنا معاكي بقي.

آلاء: يارب يا حنان أنا خايفة موت.

حنان: ماتقلقيش عايزة أسنان زيي ولا نفسك في حاجة تانية.

آلاء: لا أنا عايزة صيدلة إن شاء الله.

حنان: خلاص ربنا معاكي.

يحس يوسف بأن أسرار الكون قد أتيحت له بمعرفته لتلك المعلومات الصغيرة عنها، وكمن ربح يناصيب.

يطلب يوسف 2 كابيتشينو في استغراب من الويتر ويأخذهم و يرحل إلي الطرابيزة مناقشًا لحسام:

يوسف: ولا عرفت الاكونت بتاعها.

حسام: نعم! ازاي؟

يوسف: لقيتها سبحان الله بتتكلم عن الاكونت بتاعها وعرفت الاسم.

حسام: يابن المحظوظة ابسط يا عم.

يوسف: لا وكمان عايزة تخش صيدلة.

حسام: الله اكبر يعني كمان دحيحة و شاطرة والعه يا عم يوسف يلا بينا نخلص الشوبين دول ونخلع عشان الحاجة كلمتني في الموب و عايزاني.

يوسف: أوك.

يشرب يوسف و حسام الكاباتشينو ويخرجا وحتي لا تلحظا الفتاتان خروجهما خرجا من باب آخر للكافيه وعاد يوسف للمنزل والسعادة أصبحت شئ أحب طعمه من وقت معرفته بـ آلاء.

جلس في غرفته مفكرًا في كلام حسام في الكافيه وقبلها في الشرفة، ولا يعلم انطفأت شمعة سعادته عندما تذكر كلام حسام، فهو محق بالفعل، يوسف لا يريد أن يسبب لتلك الملاكة الصغيرة أي مشكلة ، فهي ليست من البنات الفيك المهتمين بالموضة وغيرها من تفاهات هذا الزمن بالنسبة للبنات فمعظمهن الآن يهمهن التصوير سيلفي وأخذ مواضع وغيرها، ويهمهم الموضة و البناطيل المختلفة للتصوير ويستخدموا المكياج ولا يعتبرون أنهم سوي أحرار في تصرفاتهم يفعلون ما يشاءون وقتما يشاءون مع البوي فريند إلي التسوق بالمول و أخذ السيلفي، ولا اعتبار إلي الأهالي ونظرات المجتمع لهن من النصح.

أنصح وأنسي نفسي؟ كن في حالك فلست أفضل منهن! علي الأقل هم ليسو ممن يشربون السجاير وإن كان معظمهن الآن يتجهن لذلك " مالكش دعوة بحد ياعم خليك في حالك إنت ايش عرفك بظروف الناس فكك بقي وركز هتعمل معاها ايه".

كانت تلك نفس يوسف تحدثه وتناقشه كبان كي مون يشاور مبعوث إسرائيل لفك الحصار عن غزة.

يفكر يوسف كثيرًا وما أصعب أن تمتلكك وباء التفكير وأنت لا تريد أن تفكر وتشعر أنك ستقاد للجنون ولا تعرف طريقة للخروج من تلك المعضلة يتذكر يوسف اكونت الآء علي الفيس ويخرج لابه ويجلس علي مكتبه الذي تكوم عليه ما لا تراه عين ولا يخطر علي قلب أحد من الكتب تارة والملابس وعلب السجائر وغيرها من زجاجات للبريل و أخريات.

و تلك المرة للشيطانة الهادئة يجلس ويفتح اللاب ويشغل أغانيه، يوسف ليس من هواة الفيس بوك كثيرًا، وما يحمله من أمراض اجتماعية لا يأبه بها؛ فهو يستخدمه إما ليكلم والده أو عندما يكون تليفون أصدقاءه مغلقًا فيحدثهم علي الفيس.

يدخل يوسف الاسم وكلمة السر و يبدأ البحث عن الاسم، حتي يظهر أمامه ليستة من الأسماء، حتي يجد اسمها يضئ كلؤلؤة في اخر القائمة (آلاء محمود الفناجيلي) ويدخل يوسف إلي حسابها متجاهلًا النوتيفيكاشن و الرسائل التي تعلن ترحيبها بعودته إلي الفيس، لا يهتم ويدخل إلي حسابها ليعرف عنها بعض المعلومات و إن كانت قليلة يري بعض الصور الخاصة بها، يتفحصها سريعًا، و يري أنها كانت تعيش بالقاهرة يعرف ماذا تحب و ماذا تكره، و اتقانها للانجليزية والفرنسية وأخذ ما يكفيه لاسعاد يومه وسجل خروج، وانتظر حتي أغلق اللاب ليخرج نوتته كاتبًا:

"أصرت بشريًا يحس و يشعر مثلكم؟ لا أدري كيف أتحول تدريجيًا من أنسان يائس إلي أنسان من لحم و دم؟ أري سواد العيون قد طغي علي عيني وأكسبها بريقًا جديدًا لا أريد، ولكن عقلي يريد إرادتي مسلوبة وعقلي من يتحكم بي، إلا هذه المرة التي تحرر فيها قلبي ولأول مرة أعلن عصاينه و تمرده علي عقلي لكني أخاف مخافة الراعي من الذئاب أن أكون أسيرًا لقلبي، فلطالما كرهته ولكنه الآن يذلني بمشاعره أنقذيني أيتها الزبانية فلقد عشت مرتاحًا بينكم، فلا تسلبوني مكاني المعتاد"

ويغلقها يوسف ويسرح في نومه بعيدًا إلي نجوم كوكب الزهرة، محلقًا بخياله إلي المالانهاية، إلي الفراغ الأسود، إلي عمق جراحه، إلي الموت بمتعته ولذته التي لا يضاهيها شئ فالموت راحة سرمدية لا يغني عنها أي لذة دنياوية و في اليوم التالي، يستيقظ يوسف علي صداعه المعتاد الذي يكاد أن يصل به إلي حافة الهاوية، ولا يدري إلي متي سيرافقه هذا الصداع، فهو معه منذ الحادثة يتحامل يوسف علي نفسه ويذهب هذه المرة إلي المطبخ، ليخرج كيس البن الذي قد عفا عليه الزمن، ولكن البن مثل الخمر يزداد لذة بتقدم الوقت.

يقوم يوسف لصب كوب من القهوة حتي يزيح عنه هذا الصداع و ينتظر غليان القهوة ليظفر بها في النهاية وكأنها جائزة اراب أيدول يتجه إلي الصالة، ومنها إلي الحمام ليأخذ دشًا

باردًا يعيد الحيوية إلي جسده ويفتح التلفاز، وتقع عينيه بالصدفة علي خبر نتيجة تنسيق الثانوية العامة بعد غد الأحد.

ينسي يوسف أن اليوم كان الجمعة، فالشوارع هادئة إلا من بعض الأطفال، وكذلك أصوات البوابين عند كل عمارة يتسابقون في طرد الأطفال هؤلاء من أمام عمائرهم.

يسير اليوم برتابة، فيوسف بالرغم من حالة النشوة التي وصل إليها أمسا، إلا أنه لا يريد أن يقوم بأي شئ.

وفي هذه الحالة، يقوم يوسف بإغلاق موبايله والابتعاد عن كل ما يمت إلي العالم الخارجي بصلة يعيش بمفرده في عزلة تامة، ويعتقد موهومًا أنه يتحكم في تلك العزلة، كما يتحكم في غلق وفتح صنبور مياه و يرى وجود الناس عامة سرقة لوجوده الشخصي، لهذا جعل محبتهم له تتحول إلى عدائية بإرادة مشروطة بتحكمه في عزلته، محبتهم تجعله ليس في الحدة التي يريدها لنفسه، ليس في التوقد الذي يأمله، محبة تجبره أن يكون اجتماعيًا يحمل شيئا من المسئولية، وهو لا يريد غير مسؤولية نفسه، لا يريد غير فعله الخاص، الفعل الذي لا يفيد أحدًا، ولا يشعر به أحد، ولا حتى هو نفسه الذي أطلقه في لحظة لا يعرف كيف يستعيدها لأنها لحظة، لا تحمل علامة، فهي مثل لحظات وجوده كلها.

يقضي اليوم أمام التلفاز تارة و استماع إلي الأغاني تارة و إلي استنشاق عبق الفودكا الروسي تارة أخري.

وهكذا مرت الأيام علي يوسف.

لا يريد أن يحدث أحدا أو يتواصل مع أحد، حتي أصدقاءه.

يأتي يوم الأحد و تأتي معه أمه إلي المنزل حتي تري ماذا فعل ابنها في نتيجة التنسيق، فهي تعلم أن ابنها له مستوي ذكاء خارق للعادة، و لذلك فهي مطمئنة.

فيوسف قد انصفها و افرحها و حصل علي مجموع يمكنه من دخول كلية تتفاخر بها أمام الناس.

أما يوسف فهو غير مهتم بالنتيجة علي الاطلاق، ولا يعلم ماذا يخبئ له القدر، ولا يدري إلي أين تذهب به الدنيا؛ فهو استسلم لها ولا يريد منها سوي أن تتركه إلي حاله.

دخلت الأم في حوار مع ابنها في محاولة منها لتهدئة أعصابها.

فبالرغم من اطمئنانها علي مستقبل يوسف، إلا أنها مثل أي أم تريد أن تتفاخر بكلية ابنها أمام الناس.

الام: ها يا جوو نفسك في كلية ايه؟

يوسف: اللي يجيبه ربنا كويس يا ماما.

الام: طبعًا يا حبيبي و نعم بالله بس برضة أكيد ليك حلم يعني.

يوسف: لا و الله يا ماما مش في دماغي حاجة خالص.

الام: ليه يا يوسف بس (في نظرة حزن لابنها).

يوسف: ماتزعليش يا والدتي كل الي يجيبه ربنا كويس و انا راضي يعني.

الام: ماشي يا حبيبي خش اللي نفسك فيه و اللي انت عايزة إن شاء الله ربنا هيكتبه ليك إنت طيب و تستاهل.

يوسف: شكرًا يا ماما.

الام: هي النتيجة ظهرت.

يوسف: آه من الساعة 3 العصر.

وكأن الساعة 3 هذه أعادت الي أذهانه آلاء، و دعا الله أن يجمعهما في كلية واحدة، فيوسف علي استعداد أن يحول إلي الكلية التي بها حتي ينعم بالنظر إليها و إلي وجهها الذي غلب وجه أفروديت إله الجمال عند قدماء الاغريق، ولا أبالغ إن قلت أنها قد تفوقت لو كانت موجودة وقت الاغريق لعبدوها.

يتذكر يوسف عم سعيد البواب، والحيرة والأسئلة تلتهم عقله التهامًا يريد أن يعلم إلي أين سيكون مصيره، فهو ربط مصيره بمصير آلاء، لا يعلم كيف وصل به حاله إلي هذا الكم من الحب و هو من لم يؤمن بالحب مطلقًا فقد كفر بالحب منذ أمد طويل ولكنه الآن أصبح من المؤمنين بدين الحب يخبر يوسف والدته بأنه سوف ينزل إلي الشارع حتي يشتري بعض الأشياء، فتومئ له برأسها بالموافقة ليرتدي ما يقابله في طريقه و يتجة إلي يسار عمارته إلي عم سعيد.

عم سعيد: أزيك يا راجل يا طيب.

عم سعيد: يوسف بيه و الله كنت لسه هعدي علي البواب اللي عندكم علي عشان اسأله عليك.

يوسف: ليه خير إن شاء الله.

عم سعيد: من ناحية خير فدا خير أوي يا بيه عندي ليك اخبار تستاهل الحلاوه.

يتلهف يوسف و تظهر في عينيه نظرة رجاء لعم سعيد حتي يخبره، ولكن بذكاء ثعلب يخفي تلك النظرة و يقول لعم سعيد:

يوسف: ايه ياعم سعيد طمني أنا شايف في هوجة عندك وزغاريط.

عم سعيد: عقبال عندك الأستاذة آلاء جالها كلية صيدله المنصورة.

يصمت يوسف في تحدي للجاذبية التي ألمت به وبعقله و يتنفس ببطئ حتي أحس بأن الحياة تتسرب من فجوتي أنفه، لا يعلم لماذا؟ أهو اقتراب حلمه من أن يري آلاء كل يوم ولمدة 5 سنوات أم خوفه من الارتباط والتعلق بها أكثر؟

يوسف: أخبارك حلوة زيك يا عم سعيد امسك.

يعطي يوسف لعم سعيد 50 جنيهًا يرفض عم سعيد ويحلف أيمانا ويقول له:

عم سعيد: و الله ما واخدها، علي الطلاق أنا هاخد منك لما اعرف كليتك يا جوو يا غالي.

يوسف: ماشي يا عم سعيد نهارك فل ياراجل يا طيب.

يعود يوسف هائمًا لا يدري ماذا يفعل، يدخل إلي البيت وتقابله أمه:

الأم: مبروك يا حبيبي.

يوسف: مبروك علي ايه يا ماما.

الام: أنا شفت لك النتيجة الحمدالله يارب الحمدالله.

وكأن يوسف نزل عليه صاعقة من السماء، كأنها إعصار استوائي يضرب الساحل الشرقي لامريكا.

أحس بأن أركانه قد تزلزلت عندما استمع إلي أمه، فهو من داخله يتمني أن يكون مع آلاء في نفس الكلية، ومن ناحية أخري يهاب أن يتعلق بها، فهو لم يتقرب منها حتي، ولا حتي هي تعلم عنه شئ.

يوسف: طمنيني ؟

وفي لحظة زادت دقات قلب يوسف كطبل افريقي منتظم يتزايد حتي أحس أنه لا يسمع أي شئ حوله سوي هذا الصوت.

الام: الحمد الله يا حبيبي جالك صيدلة المنصورة.

صمت رهيب يخيم علي المشهد تخيل يوسف نفسه فارس روماني حكم عليه بالإعدام للخيانة العظمي لا يدري ماذا يجب أن تكون ردة فعله أمام هذا الخبر تلقي يوسف الخبر في معانقة لوالدته وهو يردد الحمدالله الحمدالله.

يوسف: مبروك ليكي انتي كمان يا ماما عقبال ما اقدر أفرحك علي طول.

يدمع يوسف بقليل من الدموع الساخنة التي أصبح يستغرب وجودها في حياته ماذا تفعل به تلك الشيطانة الصغيرة؟ لماذا يا ربي خلقتها؟ لماذا أتيت بها إلي جانبي؟ فأنا كنت في غيبوبتي الاختياريه، سعيدًا منتشيًا لماذا هي أتت لتغير كل شئ؟ يفيق يوسف و يخرج

موبايله و يرجعه إلي وضع العام ليجد كما هائلًا من الرسائل والاتصالات التي لم يجيب عنها، و لم تفت ثواني، حتي يجد رقم احمد علي الشاشة:

أحمد: الو إيه ياعم المكتئب قافل موبايلك ليه قلقتنا عليك يا عم.

يوسف: ايه يلا ما انت متعود يعني إني بقفله باليومين.

احمد: المهم فكك ألف مبروك أنا عرفت إن جالك صيدلة المنصورة يابن الدحيحة ألف مبروك يا صاحبي.

يوسف: الله يبارك فيك و انت جالك ايه يا فاشل.

احمد: أنا جالي تجارة انجلش ياعم الحمدالله و أبويا فرحان أوي عشان هبقي أساعده في شغله لازم نتقابل النهاردة و كلم حسام ضروري عشان مختفي زيك كدة من يومين و مش عارف أوصله.

يوسف: ماشي هبقي أكلمك واقفل عشان أبويا علي الوايت.

احمد: أوك يا معلم سلام.

يرد يوسف علي والده والمشاعر مختلطة عليه لا يدري ماذا يفعل.

يوسف: ايوا يا بابا.

الأب: ازيك يا دكتور.

يوسف: الحمد الله إنت أخبارك إيه.

الأب: أنا الحمدالله يا حبيبي جايلك يوم الخميس عشان واحشني أوي.

يوسف: تيجي بالسلامة يا بابا.

الأب: الله يسلمك يا حبيبي عايز حاجة من هنا.

يوسف: لا شكرا.

الأب: سلام يا حبيبي.

يوسف: سلام.

يتصل يوسف بحسام ليرد عليه:

يوسف: ايه يابني فينك؟

حسام: ايه ياعم يوسف إنت اللي مختفي أنا موجود أهو مبروك يا صاحبي الواد احمد لسة قافل معايا أهو.

يوسف: الله يبارك فيك انت جالك ايه؟

حسام: زيك صيدلة.

يوسف: بتتكلم بجد.

حسام: والله يا حبي معاك و هقرفك.

يوسف: حبيبي والله أنا كدة اتبسط تعرف إن الحورية جالها صيدلة؟

حسام: اقسم بالله أيوا بقي يا عم ألف مبروك.

يوسف: الله يبارك فيك هننزل النهاردة بقي عشان نحتفل و الواد محمود هكلمة اشطا!؟

يوسف: اشطا 8 علي الكافية الي قدام مارشال عارفة.

حسام: اه.

يوسف: خالص بقي تمام.

حسام: تمام.

يوسف يتصل بمحمود :ألو يا عمي.

محمود: يوسف ابن الناس الكويسين فينك ياعم بتصل بيك اليومين اللي فاتو قافل موبايلك.

يوسف: انت عارف بقي صاحبك.

محمود: عارفه.

يوسف: المهم النهاردة نازلين علي الكافيه الي قدام مارشال.

محمود: أنا في الساحل يا صاحبي مع حكاية كده لما أرجع هرسيك علي الحوار كله.

يوسف: ماشي يا ريس عيش.

محمود: حبيبي يلا سلام دلوقتي.

يوسف: سلام.

يغلق يوسف الخط ويتجه إلي غرفته في محاولة منه إلي إعطاء نفسه فرصة للتفكير، وأخد عهدًا علي نفسه بأنه لن يحاول أن يراها إلا عند دخوله الجامعة ولم يعد هناك كثيرًا من الوقت؛ فالجامعة ستبدأ في خلال أيام سيغتنمها يوسف في التفكير حتي لا يتخذ قرارات سريعة خاطئة تأتي الساعة الثامنة وكالعادة يخرج يوسف مع أصدقائه وجلسات السمرو الدخان يعود إلي المنزل، و تسير الأيام برتابة و روتين، لا يوجد بها الكثير، ولا يوجد تغير سوي في أماكن التجمع أما في النادي الذي كان يحب أن يتجمع فيه يوسف لوجود الكثير من الهيروين الخاص به: البنات وبهدوء مايسبق العاصفة، تأتي العاصفة، و تبدأ الجامعة بالنسبة ليوسف لا يفرق الكثير عنده الجامعة من الثانوي، فيوسف يفهم حياته، و يحاول أن يعيشها بكل ما تأتيه من قوة، بعكس الكثير من طالب الثانوية الذين يدخلون الجامعة معتقدين في الانفتاح اللامحدود، و أنهم يدخلون سوق عكاظ لشراء الجواري فيعتقد كل منهم أنهم سوف يدخلون ليجدوا البنات ترحب بهم كبنات تشجيع الفرق الأمريكية بالورود يدخل يوسف الجامعة وفي داخله أمنيته الضائعة: عازفة أوتار قلبه، مسيحه الذي يمشي علي الماء و الذي يحي الموتي آلاء ويدخل يوسف في حياة يحسبها البعض جديدة ولكنها عادية فبالرغم من الاختلاف الذي يشعر به قليلًا، إلا أنه ومن أول يوم كون لنفسه شخصية قائدة هو وحسام بين أصحابه وتكوين ما يعرف بالشلة فيوسف وحسام عرفوا من أول أيام الكلية، ولما لا؟

فوجودهم بين الكافيهات والأندية أعطاهم سمعةً يحلم بها كل طالب جديد الكل يهاب يوسف، لا يتحدث معه إلا في أضيق الحدود نظرا لمنظره واحد المختلف الاوشام والاستايل الخاص به.

ولكن حسام كان يحاول تقريب الجميع له، إلا واحدًا فقط كان من الذين يرون يوسف مسخ ولا يحبه إنه عادل هو شخصية غريبة له في صولات البنات كفارس من العصور الوسطي، ممتلئ الجسد بعض الشئ إلا أن جسمه متناسق ملابسه الفخمه جدًا من أنقي الماركات قد كون لنفسه داخل الكلية شلة من البنات التي كان يعرفها من خارج الكلية فهن دائمًا ما يسألونه علي يوسف عوض الدين، وهو كان يذم فيه ويتفنن في إخراج القصص والحكايات المغلوطة، ووصل الحال بينهم إلي حافة الشجار عندما علم يوسف أن عادل حاول أن ينسج خيوطه العنكبوتية حول آلاء وإذا بيوسف يذهب إلي عادل ويلقنه درسًا لن ينساه نظرًا لـلكمة الخطافية التي أسداها يوسف له فأسقطته أرضًا ولكن تدخل حسام في الوقت المناسب، وأحست آلاء في ذلك الوقت بوجود يوسف فـ آلاء كانت بعيدةً كل البعد عن الدفعة، وليس لها أصدقاء كثر يراها لا تتكلم البته، ومن الكلية إلي المنزل ومن المنزل إلي الكلية، لا تعبئ بمن حولها من الصبية الذين يريدون منها ولو نظرة يتفاخرون بها أمام أصدقائهم ولما لا؟ فهي كانت مثل نبيلة من نبلاء العصور الوسطي، ملكة متوجة علي عرش تلك الدفعة، لا يقترب منها أحد وإن اقترب كانت له بالمرصاد إلا أن نظرات يوسف لها في المحاضرات جعلته يمتلك الإنسانية التي لا تحمل من صفات الإنسانية إلا الاسم فقط فكيف يقنع هذه بحبه؟ وتدور الأيام، ويتبعها يوسف كل خميس في خروجاتها مع أخواتها، حتي لاحظت وجودة مرة، وفي يوم خرجت فيه الشمس من المغرب أوقفت آلاء يوسف في الكلية طالبه منه محاضره يشرحها لها و دار حوار بسيط لا يتعدي سوي كلمات تحسب علي أصابع اليد الواحدة:

الاء: السلام عليكم.

ينتفض يوسف عند رؤيته لها وهي تكلمه وكأن عقرب من عقارب تكساس قد لدغه.

يوسف: و عليكم السلام تحت أمرك.

الاء: لو سمحت حضرتك يوسف عوض الدين معانا في الدفعة.

وفي هيام يجيب يوسف وهو مرتجفًا في لحظة غريبة لأول مرة يشعر بها في حياته.

يوسف: أيوا أنا يوسف عوض الدين.

الاء: لو سمحت كنت محتاجة من حضرتك محاضرة د/محمد الأسيوطي اللي فاتت.

يوسف: أوك لحظة واحدة.

علي حظه تكون أول محاضرة يكتبها يوسف في حياته هي المحاضرة التي تطلبها آلاء.

يوسف: اتفضلي.

الاء: أوك شكرًا هصورها وهرجعها لحضرتك تاني.

يوسف: الاسكيتش بتاعك أنا مش هاخدة تاني.

آلاء: لا ماينفعش ماقدرش أخده.

يوسف: وأنا مش هاقدر أخده تاني آسف.

يضحك يوسف بابتسامة خفيفة ويتركها ويرحل وعندما أدار ظهره إليها ضحكت هي الأخرى وافترقا الاثنان كل منهم يحمل الآخر شيئ من الحب والرهبة لم ينم يوسف عوض الدين ذلك اليوم تفكيرا في كل تفصيلة في وجهها عيناها، وجنتيها، شفاهها فهي دولة لا يستطيع أن يتقرب منها أحد لا وأبادته، إلا يوسف الذي تقرب بعض الشئ من حدودها حتي ظل يسمع الكلمات التي كانت تخرج من فمها، إلي أن غاص في النوم.

* * *

الفصل الرابع:

"الاكتشاف"

أصبحت الأيام بها شئ من الرغبة في إرباك حياة يوسف، بعدما كانت هادئةً هدوء البحر الميت لكنها أبت أن تستمر هكذا، تمر الأيام بيوسف في الجامعة، وهو في نشوه ويري آلاء تقريبًا يوميًا ويدور بينهم حوار ولكن بلغتهم الخاصة: لغة العيون كان يوسف لا يعلم لما لم يذهب إليها ويطلقها في وجهها أنا أحبك؟ لماذا لم يفعل ذلك؟أهو إرضاء لكبريائه المبالغ فيه، أم أنه قد تعلق بها لدرجة أنه لا يريد أن يخسرها عندما يصارحها بحبه لها؟ وفي تلك الأيام زادت أوشام يوسف وشمين: فقد وشم علي ساقه اليمني جناح لمالك وعلي قدمه اليسري جناح لشيطان، جائته الفكرة من حبه لها.

يقف يوسف مفكرًا امام مرآة الحمام، يضرب نفسه قلمًا حتي يتأكد من نفسه وفي لحظات من لحظات المصارحة مع النفس يقول يوسف "حب ايه دا أنا بحب أنا اتنيلت وحبيت مين دي عشان تحرك قلبي؟ مانا كنت قاعد بعيد عن الدنيا وفي حالي كافي خيرها شرها جه الوقت اللي اقعد أفكر فيه إني بحب! و اقعد أفكر فيها أصلًا عشان يعذب اللي بيحبوا ولا عشان يبينا ضعاف قدام نفسنا؟ ليه كل دا؟ ليه الحب اتخلق؟ فوق يابن عوض إنت كدة عايز تعمل اللي عمله أبوك تحب وتتجوز وتخلف و تضطر تسافر عشان تجيب لمراتك وولادك الفلوس ومايبقاش حد جنبك وعلاقتك كده كده هتدهور مع مراتك لا هي هتحس بيك ولا هتحس بيها و تبقي الوحدة هي كلمة السر! يبقي ليه من الأول؟ يمكن عشان كنت محتاج تحس بالشعور ده؟ عشان تحس إنك فعلًا عايش حسام أو حتي محمود حسوا بالحب قبل كدة؟ يا تري هما عايشين ازاي؟ بيتعاملو مع الحب بأنهي طريقة؟ طريقة احمد ومحمود اللي كل همهم جسم البنت! ولا حسام اللي بيحاول يعوض نقص فعلًا ولا مصالح متبادلة؟ يارب أول مرة بدعيك وأنا الاهتمام بيه بإنه يحب؟ ويا تري دا حب عارف إني بعيد عنك! يمكن الشيطان أقرب ليك مني! علي الأقل هو كان

مالك و اتحول عشان يبقي شيطان بس أنا اتولدت شيطان! خرجني من الضيقة دي وجهني"

وفي تلك اللحظات يشعر يوسف برفيق دربه الذي لم يتنازل يوم عن زيارته: الصداع النصفي الذي كاد أن يزهق روح يوسف تتوارد الخواطر والمشاهد أمام يوسف حتي شعر بدوار غريب يحدث له للمرة الأولى لا يستطيع تمييز الأشياء من حوله يتحسس مقبض باب الحمام حتي يخرج منه، ولكنه في طريقه إلي السقوط البعيد، إلي نقطة اللارجوع، إلي حواف الهاوية يتمالك يوسف نفسه مقاومة منه لنفسه يعارضها، يحاربها كمصارع ثيران أسباني ينتصر عليه يوسف، حتي يخرج من الحمام، والعرق يكاد يكسوه كعرق يوم القيامة عندما تقترب الشمس من الرؤوس يقف في وسط الصالة وهو لا يستطيع أن يخرج سوي حشرات تتداخل أصواتها مع أصوات دقات قلبه غير المنتظمة فجأة يصرخ يوسف صرخةً أحس بأن روحه تكاد أن تتمزق، وإن سمعها أهل النار لا شفقوا عليه من شدتها، صرخةً تنم عن كل ما يخلج من صدره الانتقام من نفسه الدماء التي رآها يوم الحادثة تخرج من قدمه ورأسه الكره للعالم الخارجي وما به صرخة تكاد أن تكسر ما حوله من زجاج المنزل لا يقاوم يعطيها تصريح الخروج دون عوائق دون قيود انطلقي حتي خرجي روحي معك، فأنا لست بحاجة إليها الآن وفي تدرج غريب، يشعر يوسف باكتساء الجو العام بالاسود يغمض عينيه تدريجيًا الالم ينخر في رأس يوسف وكأنه السوس الذي أكل عصا سليمان وكأنه بريمة بترول تبحث بلا هواده في جانب رأسه الأيمن في محاولة منها لاخراج بعض الذهب الاسود يسقط في بئر النسيان بعيدًا ليعمق الأرض، إلي نواة هذا الكوكب العفن الذي عفت عليه السنوات عليه و العقود و مازال ينبض بالفساد يسقط يوسف مغشيا عليه تمر الساعات ويوسف في غيبوبته لا يعلم به أحد ولا يشعر به كائن خلق علي وجه الأرض ويفيق يوسف علي رنة موبايله المزعجة، ليجد رقم محمود علي الشاشة يلح حتي يجيب عليه ولكنه لا يستطيع حتي أن فتح عينه، وتنزلق يده كلما حاول التقاط موبايله حتي توقفت الاتصالات، وصمت خيم الهدوء المخيف علي المكان الظلام يغطي جنابات الشقة حتي أغشي علي يوسف للمرة الثانية ولكنه هذه المرة أفاق علي دقات قوية علي الباب تطالبه بفتح الباب ولكن قوي يوسف لا تستطيع أن تؤذي ذبابة بها أخذ يترنح في

محاولة للوقوف حتي وصل إلي مقبض الباب بعناء شديد فتح الباب حتي يجد محمود يتلهف علي حمله، وخرت قوي يوسف علي أيدي محمود فحمله، وأراحه علي سريره وذهب محمود إلي المطبخ ليعد له كوب قهوة حتي يفيق وبالفعل كذلك حاول ان يجعله يشرب القهوة وبعد محاولات مستميتة، شرب يوسف القهوة وبدأ في استرداد الوعي وبسرعة سبقت سرعة البرق، نزل محمود إلي الصيدلية المجاورة لمنزل يوسف ليجد أي شئ يساعد صديقه علي الأفاقه حيث وصف له الطبيب بعض الأدوية، وقال له إن لم يذهب الصداع، لابد أن يأتي إليه حتي يعلم تشخيصه وبالفعل ذهب محمود إلي يوسف، وأعطي له بعض الأقراص وبعض أدوية الشراب حتي تجعله يفيق وبالفعل بدأ يوسف بالافاقة، ولكن ضيفه الثقيل لا ينفك ينقر في طرقات جانب رأسه الأيمن.

محمود: ايه يابني خضيتني عليك ياعم.

يوسف: أنا تعبان أوي يا محمود.

محمود: ايه يابني سلامتك ايه الي حصل.

يوسف: الصداع بتاع كل مرة.

محمود: يابني حرام عليك نفسك، روح اكشف عشان مايزيدش عليك ايه اللي حصل المرة دي.

يوسف: كنت في الحمام وفجأة جالي صداع حسيت المرة دي إني هموت عقبال ماعرفت أخرج من الحمام قعدت أصرخ لغاية ما أغمي عليا من الألم وفوقت علي مكالمتك، وبعديها أغمي عليا تاني.

محمود: أنا قلقت لما أعدت أرن عليك وإنت مش بترد قولت دي مش عوايده لما رنيت عليك ييجي 4 مرات ويدي جرس بس، قلت لا لازم أجيلك الحمدالله يا جوو قوم معايا نشم شوية هوا.

يتحامل يوسف علي كتفي محمود ليخرجا الي الشرفة وفي محاولة من محمود لإخراج يوسف من هذا المزاج السئ قام بإلقاء بعض النكات السافلة التي يعلم أن يوسف يحبها ضحك يوسف وبدأ في استعادة وعيه بالكامل.

محمود: فوق كدة يا حبي إنت عامل ايه في الدراسة أنا عارف إنك برغم إنك مضيع بس شاطر.

يوسف: ياعم أنا بعمل اللي عليا أذاكرلي ساعتين ولا حاجة و باقي اليوم انتخه، والصداع دا مبوظ عليا حياتي مش عارف أعمل معاه ايه حشيش وبشرب وخمرة وبشرب اعمل ايه عشان يروح.

محمود: الصداع مش هيروح بالخمرة والحشيش وبعدين أنا عايزك تجيلي حاسبات تقعد معايا يوم هناك كده العيال عندي ماعندهمش غير سيرتك.

يوسف: ايه ده انت يابني مش قلتلي إنك هتألش السنادي ومش هتخش الجامعة.

محمود: ألش ايه يابني أنا ناقص أبويا يوديني في داهية و بعدين أنا ماشفتكش من أول الدراسة كنت في الساحل مش أنا مكلمك.

يشعر يوسف بنبض خفيف يعود إلي رأسه.

يوسف: اه صحيح معلش.

ينظر محمود إلي يوسف و يكمل حديثه.

محمود: عايز أشوفك مبسوط يا يوسف حالك مش عاجبني ماتهملش في نفسك لو ليا عندك خاطر.

يوسف: حاضر والله يا محمود أبويا أجل رجوعه لمصر وبرضه مش عارف أشوفه ومش عايز بيني وبينك يعني.

محمود: يا عم حاول تظبط علاقتك بيه شوية عشان مايحصلكش زيي انا أهو كل يوم مشكلة مع أبويا لحد ما هسيب له البيت وهطفش وأمي زي ما أنت عارف غلبانة وفي حالها وبتحبني فكك يا جوو وكلمه هيفرح أوي.

يوسف: إن شاء الله.

محمود: أسيبك بقي ولا عايزني معاك.

يوسف: لا يا معلم أنا هبقي كويس روح عشان أبوك مايقفش عليك.

محمود: ماشي يا رفيق كلمني بكرة اشطا.

يوسف: اشطا سلام.

يخرج محمود من المنزل و يترك يوسف إلي نومه في صراع قبرصي تركي علي أحد جزر عقا ليوسف واستسلم للمرة الأولى للنوم يذهب اليوم الذي يليه إلي الكلية ليجد كل من حسام واحمد ينتظراه عند كلية صيدلة.

حسام: ايه يابني اللي حصلك إمبارح؟ الواد محمود كلمنا و قلقنا عليك مش قلتلك تبطل وتهدي اللعب شوية! مايبقاش حشيش وخمرة إنت ناقص.

يوسف: ولا انت وهو مش نقصاكم خالص أنا علي أخري ودماغي وجعاني ومش قادر وعندي محاضرات مهمة النهاردة.

أحمد: ماشي يا بوب أنا هروح عند تجارة عشان في واحدة مستنياني تمام.

يجد يوسف و حسام ينظر إليه في شفقة.

حسام: ايه يا بني اللي انت فيه دة! هايبقي البت ودماغك كمان أنت ناقص! و يلا احنا عندنا سيكشن عملي وهحضر معاك يلاعشان ماسيبكاش لواحدك.

يوسف: ماشي يلا بينا.

يذهبا، ويدور يوسف برأسه يمينًا أو يسارًا حتي ينفض النبض المزعج في جانبه الأيمن يدخلا إلي المعمل برائحته المعهودة والبلاطي البيضاء التي تكاد أن تضئ من شدة بياضها

يقف الاثنان إلي جانب أحدهما الآخر ولحسن حظه، يجد يوسف آلاء في مقابلته علي الطرف الآخر من البنش ينسي يوسف المحاضرة والدكتور، وكل ما يمت لعالمنا بصلة ليذهب معها إلي بلادها التي يذوب بها عشقا ساحره تكذبه إليها بسحر محمودًا يزيد لهيب يوسف كموقد للنار في فيلا أحد الأثرياء وفي وسط كل هذا أحس بنبضات رأسه تتزايد وتتزايد ويرحب بالضيف الثقيل: الصداع، ولا يستطيع أن يتمالك نفسه ليخرج واقعًا امام السيكشنو الدكتور مغشيًا عليه يشعر بالايادي وهي تحمله كان آخر وجه يراه هو وجه آلاء في لهفة منها عليه و يسمع صوت حسام في محاولة الفاقته، ليجد نفسه في منزل ذو شرفة واسعة وسط المروج الخضراء الواسعة و إلي جانب المنزل بركة ماء زرقاء زرقة السماء، وهادئة هدوء السحب، لا تتحرك يجلس يوسف برزانة واسترخاء وهدوء غلب هدوء أعصاب جراح بريطاني انتهي من عملية لزرع قلب.

يري آلاء أمامه، وهي تحمل طفلًا جميلًا وكأنه ولد له هذا الطفل ولكن الغريب أن يوسف وجد نفسه ينادي عليها باسم غير اسمها، لا يعلم لماذا؟ ومرة واحدة يفيق يوسف في منزله الذي تعود عليه ليجد أمه ومحمود وحسام وأحمد يجلسان إلي جانبه قالت والدته وقد ظهر عليها اثر الذعر حتي كونت مجري خاص بها علي وجنتيها.

الام: يوسف حبيبي إيه اللي حصل يا بابا قلقتني عليك.

يوسف: أنا فين.

محمود :إنت في البيت يا معلم حمدالله علي السلامة.

يوسف: أنا جيت إزاي هنا.

حسام: أنا و صحابك وصلناك بعربية عادل اللي معاك في صيدلة لحد البيت الواد طلع جدع و ماسابكش إلا لما حطناك في السرير، ويوسف يشكر الراجل.

أحمد: طب نسيبك بقي دلوقت عشان ترتاح و لازم تشوف دكتور يا جو ماتسيبش نفسك كده انهي احمد التجمع و ترك يوسف ووالدته يتناقشون.

الام: يوسف لازم تشوف دكتور بابا اتصل و كان زعلان أوي ومضايق أنه مش عارف يشوفك.

يوسف: ماما اللي بيني و بين بابا انتهي من ساعة اللي حصل لا عايزه يهتم لأمري ولا أنا محتاج أهتم بيه خلي فلوس الخليج تنفعه لما أنا اضيع تذرف والدة يوسف المزيد من الدموع و هي تنظر إلي ابنها الوحيد:

الأم: طب يا حبيبي نروح نشوف دكتور بكرة ان شاء الله عشان خاطري.

يوسف: حاضر يا ماما حاضر هنشوف دكتور حددي ميعاد و نروح ليه.

تفاجئه والدته و تقول: أنا خالص حددت ميعاد مع الدكتور و هنروح ليه بكرة بليل.

يوسف: خلاص يا ماما بكرة بليل.

الام: ولحد بكرة مفيش حركة ومش هتنزل من السرير وهتاخد الدوا ده لحد ما نروح ماشي.

استجاب لاوامرها حيث سئم يوسف من مخالفة الأوامر وامتثل لها هذه المرة في عدم مقاومة منه حتي لا تزيد آلامه فالدق علي طبول رأسه أصبح يزعجه، حتي أنه بدأ يؤثر علي رؤيته، بل جعله لا في هذا الحلم، حتي ارتسمت ابتسامة علي شفتيه وأول مرة في حياته يحلم أخذ يفكر طويلا لكن سرعان ما تبخرت فهو سعيد لأنه أول ما حلم حلم بـ آلاء ولكن لماذا كان يناديها باسم آخر في الحلم؟ وما هذا المكان الذي كانا يجلسان فيه؟ فهو أجمل من أي يكون حقيقي ماذا يعني كل هذا؟ و هل له مدلول أم هو أضغاث احلام؟آه وآه من وجع رأسي هذا وآه وآه من وجع قلبي وماذا أفعل؟ لقد رأتني اليوم و أنا ضعيف! لماذا يا الله؟ لقد دعوتك أن ترشدني إلي الطريق الصحيح، فلماذا جعلتني أظهر أمامها بوجه ضعيف؟ ولماذا جعلت شخصًا مثل عادل أن يراني في تلك الوضعيه تبًا لسخرية القدر لها إنها تجعلني اشمئز من هذا العالم وممن يعيشون به وزفر نفسًا حس أنه يخرج به روحه من جسده.

التقط علبة السجائر ليلتقط منها واحدة حتي يحكم عليها بالإعدام حرقًا ليخفف وجع رأسه قليلًا، أنهاها حتي لا تراها أمه بعدها عقد معاهدة مع النوم بعد شرابه لحبة منوم قد أرغمته أمه أن يشربها حتي لا يشعر بالألم ها هو يغط في النوم كطفل في الثانية من عمر هل ينام بين أحضان أمه في أمان غط في نومه غير مبالي بشئ سوي أنامل والدته التي تعطيه جرعة من الحنان و الحب كافية أن تكفي أهل الأرض مائة عام ويحلم بنفس حلمه السابق، ولكن الاختلاف الآن في وجود آلاء تقترب منه شيئًا فشيئًا ويوسف يضحك راضيًا بما منحه القدر من أجمل ملائكته في عالم البشر وما نفكت أن تقترب حتي أخذ ينادي عليها باسم آخر، وهي تحمل طفل رضيع غلب جماله لوحة من لوحات دافينشي.

استيقظ يوسف فجأة ليجد أمه تجلس إلي جواره وقد غلبها النعاس وفي صوت متهدج تقطعت به الاوصال قال لامه:

يوسف: ماما... ماما.

الأم: أيوة يا يوسف عايز حاجة.

يوسف: لا قومي نامي جوة الفجر مش فاضل عليه إلا كام ساعة.

الام: فجر فجر ايه يا حبيبي احنا الضهر.

يوسف: الضهر ازاي أنا نمت كل ده.

الام: اه من تعبك يا حبيبي يلا خليك في السرير لحد ميعاد الدكتور الساعة 6.

يستلقي يوسف علي السرير لينفض نفسه بعد أن ذهبت والدته لتحضير الطعام، ونبضات رأسه تختلس النقر في رأسه بمطرقه من حديد جس، وكأنه صنع في النار خصيصًا لتعذيب يوسف تناول يوسف اللاب الخاص به، و بدأ في تشغيله، حتي ظهرت علامه انهملك يوسف يفعل به ما يشاء و ما أن شغله وحتي أعد قائمة الاغاني العربيه انتقاه الام ابنها لعروسه و بعض من الاغاني الاجنبية وهو نوع بعض المطربين و المطربات من الفن الراقي الذي لا يسمعه إلا صاحب الذوق الرفيع، حتي فتجد فيه أخذ يستمع إلي ما يستمع إليه وتمر الساعات متباطئة بعض الشئ، سريعةً شئ آخر حتي وجد أمه تناديهأن يجهز نفسه

حتي يذهبا إلي الدكتور للكشف عليه لم يعط يوسف للأمر اهتمام ولم يكن يضع في حسبانه أن يكون شيئًا ذا قيمة، حتي ارتدي ما يجد ارتدائه وخرج مع أمه واستقال تاكسي، حيث لم يتسني لهم أن يصلحوا العربة القديمة لما تحويه من ذكريات مؤلمة للجميع ركبا الاثنان و أخذا يدورا في شوارع المنصورة حتي وصلا إلي عيادة الدكتور ليجد يافطة كتب عليها ببضع كلمات من نور أبيض ناصع د/حامد الجبلي دكتوراة في جراحة المخ و الأعصاب وزميل جامعة كامبريدج وجامعة تورينو الكندية أدلفا إلي الداخل، وانتظر يوسف دوره بعد الرتابة والملل الذي يطغي علي عيادات الدكاترة عمومًا، بالإضافة إلي وجود سكرتير قد غلبه الملل من شدة فراغه ومشاهدته للتلفاز، حتي سمع يوسف السكرتير ينادي: يوسف اتفضل جوة الدكتور منتظرك دخل يوسف ووالدته إلي غرفة الطبيب، غرفة هادئة نوعًا ما يجلس الدكتور بنظارته التي يلقي حملها علي طرف أنفه وشعرة الأبيض الكثيف، وتمقه ملبسًا رغم سنه الذي جاوز الأربعين ببضع أعوام وجد تابلوه خلف الدكتور لمنظر طبيعي لبعض الاحصنة، وإلي يساره يوجد ركن خاص بالكشف جلس يوسف ووالدته وبدأ الدكتور في الحديث:

الطبيب: ازيك يا يوسف.

يوسف: تمام الحمد الله.

الطبيب: ها بتشتكي من ايه يابطل؟؟.

حاول الدكتور اختصار المسافات في الحوار الملل الذي يتبعه مع كل مريض نظرًا لشكل يوسف العام، فهو يدرك أنه شاب و ليس له القدرة علي تحمل مثل تلك التراهات التي يلقيها الدكاترة.

يوسف: والله يا دكتور الصداع دا ملازمني من حوالي 6 أو 7 سنين كان صداع عادي مايجيله صداع وياخد له حبيتين ويروح لحد فترة قليلة بدأ يجيلي بشكل مستمر يعتبر ملازمني لحد دلوقتي ماكنتش بعرف أنام إلا لما أشرب له أي حاجة أي حاجة تخليني أنام بعدني عن مذاكرتي و عن حتي أصحابي لحد أول امبارح كنت في الحمام و حسيت بالصداع دا في الناحية اليمين من راسي، وهو دايمًا نصفي لحد ما أغمي عليا.

في ذلك الوقت جحظت عينا والدة يوسف و كأنها تريد أن تقول لماذا لم تتصل بي و يكمل يوسف حديثه:

يوسف: ماردتش أزعج ماما عشان كانت عند تيتة، ولحسن الحظ واحد صاحبي كلمني و لما ماردتش عليه جالي علي البيت و قدرت أفوق للحظات وافتحله شربني قهوة وجابلي دوا من الصيدلية، وراح الصداع تاني يوم في الجامعة..

قاطع الدكتور يوسف قائلًا: الصداع يا يوسف بيجيلك نصفي دايمًا في الناحية اليمين؟ ماجاش ليك كلي قبل كدة؟ والصداع دا أثر علي رؤيتك شوية ولا لا؟

رد يوسف:

يوسف: لا ما جاليش كلي يا دكتور وفعلًا اثر علي رؤيتي دا حتي خلاني أحلم وضحك يوسف نصف ضحكة وأسرد لحد تاني يوم لما روحت الجامعة، كان لسه النبض في دماغي كأن واحد شغال في منجم وقاعد يدق علي الناحية اليمين في دماغي ولما كنت في السيكشن زاد ضغط الدق علي رأسي لحد ماخلاني يغمي عليا تاني.

الطبيب: طب يا عم يوسف إنت هتجيلي بكرة بعد ماتعملي شوية تحاليل كده وأشعة علي المخ ضروري بكرة وهستناك في نفس الميعاد وأنا هسيب خبر للسكيرتير.

قام يوسف ووالدته من مجلسيهما وخرجا والأسئلة تكاد أن تفتك برأس والدته وفاجئته بعد أن ركبا تاكسي للعودة إلي المنزل:

الام: ليه ماقلتش إنك تعبت أول امبارح؟

يوسف: مارضيتش أزعجك يا ماما.

الام: تزعجني ايه و بعدين إزاي تخبي عليا حاجة مهمة وخطيرة زي دي.

يوسف: آسف يا ماما بس حسيت إنها مالهاش لازمة.

الام: مالهاش لازمة ماشي حسابنا بعدين.

وصلا إلي المنزل و الغضب يتملك والدته وفي نبرة غاضبة قالت:

الأم: حضر نفسك بكرة الصبح هنروح نعمل التحاليل والأشعة عشان الميعاد دي تحاليل مبدئية لحد مانعرف عندك ايه.

نظر إليها يوسف كأنه فهم لماذا هي غاضبة وقال:

يوسف: حاضر يا أمي.

دخل إلي غرفته وأخرج نوتته التي لم يزرها منذ أن دخل إلي الكلية وتعرف علي آلاء ليكتب في إحدي صفحاتها:

"الالم، الغضب، الكره، الكفر،
الايمان، التذكر والنسيان، الحزن والدموع، الكفن والشموع، الكلمات، الصيحات، التعذب، السادية، الشارومية، تلاقي أنفس المرضي،عقلي، قلبي، الوجهة، تسطح المعالم، الأصدقاء، الخيانة، الظلم، الاعتقاد، المرح، النشوة، و الغدر كلها تجتمع بداخلي ولا أجد لها مخرجا لم أعتقد يوما انني سوي ولكن الآن يتملكني المرض آخر ما اعتقدت أنه له سلطان علي لا أفتخر بعالمكم، وليس لي مكان بين جنباته فمكاني قد حجز منذ آلاف السنوات يغلق نوتته ويخرج لابه ويدخل إلي الفيس ليري وجه آلاء الذي يداعبه في كل وقت وحين حتي يجد رسالةً في صندوق الرسائل تسمرت عيناه عندما رأي الاسم (آلاء محمود) أخذ يقرأ الاسم وكأنه يرتل القرآن، وأخذ ويفرك عينيه عندما رأي الاسم وتاريخ الإرسال إنه أمس! يوم أن أغشي عليه وجد ما كتب كالتالي السلام عليكم ألف سلامة علي حضرتك انتهت الرسالة تصنم يوسف وكأنه صنم من أصنام الكعبة التي عبدها قريش وان كان موجودًا وقتها لعبدوه مثلهم، فلا شئ يدل علي حياة يوسف سوي صوت أنفاسه ولم يستطع يوسف أن يفكر في ماذا يرد؟أو كيف يرد وحتي لماذا يرد؟ كل ما عليه هو أن سجل الخروج وجهز نفسه ليوم غد، الحافل بالكثير والكثير وثم نام يوسف بعد إغلاقه للموبايل كعاده مقيتة به تمني أن يتخلص منها، ليفيق اليوم الآخر وأمه تنادي عليه:

الام: يلا يا يوسف البس عشان نروح للمعمل.

أجري يوسف الكثير من التحاليل هذا اليوم لا يعرف ما سببها الغريبة أن نتائجها تخرج في الحال،ولا يعلم لها يوسف من أسماء سوي بعض الأسماء الطبية التي لا يحب أن يزعج بها

نفسه ذهبا في آخر المطاف إلي معمل للأشعة ليقوم بمسح للمخ و في نظرات مريبة للدكتور المتخصص في الأشعة بعد خروجها، رمقه بنظرة غريبة لم يفهمها يوسف، ولا يعلم لماذا نظر إليه هكذا سوي أنه لم تعجبه تلك النظرة فنهره بنظرة أخري أخذت أمه الأشعة، وانطلقا إلي المنزل ليفتح تيليفونه ويجد الرسائل والمكالمات المعتادة من محمود فقط فيستغرب و يقوم بالاتصال به.

يوسف: ايه يابني كمية المكالمات دي؟!

محمود: انت ياعم لو هتقفل موبايلك تاني ماتكلمنيش تمام! مش ناقصة قلق علي أهلك، الواحد غلطان أصلا انه عايز يطمن عليك.

يوسف: اهدي بس يا معلم و الله اليوم طويل وماكنتش في مود أكلم حد.

محمود: وانا حد يا عم يوسف.

يوسف: لا إنت سبت هههه، فكك يا صديقي ماتزعلش بقي والله ماتزعل دا انتا حتي الديلر بتاعي يا جدع وطلعت أجدع من العيال التانية الي مارنتش عليا حتي.

محمود: عيال مين؟

يوسف: العيال هو في غيرهم احمد و حسام.

محمود: آه المهم إنت عملت ايه.

لسه هروح كمان 3 ساعات للدكتور عشان يشوف نتيجة التحاليل والأشعة هي الساعة كام ؟

محمود: الساعة 3 .

يوسف: ها 3 طب اشطة سلام انت دلوقتي.

محمود: ماشي سلام وابقي كلمني.

يوسف: أوك.

تذكر يوسف أن اليوم لا يوجد به محاضرات، وتذكر آلاء ثم أسرع إلي الشرفة حتي يجدها جالسه علي كرسيها، واضعةً سماعات الأذن، متجهةً بنظرها إلي شرفة يوسف.

ايه دي باصة نحيتي ومش واخدة بالها إني ببصلها أنا كمان ماتحرجهاش يا غبي بص تحت في الشارع عشان ماتخدش بالها إنك بتبص لها أنت.

كمان ظلت ترمق يوسف لما يزيد عن نصف ساعة ولا يعلم ماذا يفعل هو؟ ظل يرمقها بنصف عينه حتي دخلت إلي شقتها و ظل هو جالسا في محرابه، يتأمل كل تفصيله حدثت معها من قبل: نظراته لها عند دخوله أول يوم للجامعة ويتذكر عادل و ماذا فعل به عندما سمعأنه يريد أن ينسج خيوطه حولها، يتذكر اللقاء الذي دام ثواني في عرفكم أنتم البشر ولكن تساوي سنينا عنده وهو يتذكر نظرتها له وهي تضحك، فتطير من حولها الفراشات، وتزدهر الدنيا من حولها، و تتحول إلي اللون البمبي يتضكر حجابها، وكيف يضفي عليها لمسة إلهية من يد الإله نفسه ويتذكر نظرة الخوف التي إعتلت وجهها عندما سقط علي أرضية المعمل أول أمس كل هذا يتذكره، حتي سمع الصوت مرة أخري: صوت آذان العصر يختلج قلبه، ويستمع إلي كل كلمة منه تذرف عينيه دمعا ولا يعرف لماذا؟ فبعد كل هذه السنوات التي لم يدعي فيها ربه إلا مرة يحن قلبه إليه، و يدعو "يارب اجعلها لي" انتهي الآذان وظل يوسف بالشرفة حتي جاءت والدته بالطعام ثم ميعاد الدكتور خرجا الاثنان في اتجاههم إليه وعندما دخلا وجدا السكيرتير في لهفة يدخلهما وسط تذمر من باقي الموجودين حتي دخلا إلي الدكتور، فوجد نظرة تعتلي وجهه، حيث قد أرسلت الام نتائج الأشعة والتحاليل إليه مسبقًا جلس يوسف ووالدته أمام الطبيب خلع الطبيب نظارته وأخذ يحدثهما:

الطبيب: إنت طبعًا يا جو مؤمن بالله ومؤمن بالقدر خيره و شره.

نظر يوسف إلي الطبيب نظرة محيرة لا يفهم شيئًا ووالدته نفس الشئ.

الطبيب: لازم يكون عندك إيمان يا يوسف وتعرف إن ربنا مش بيأذي حد إلا عشان يختبر إيمانه، جايز شايفك بعيد عنه شوية فحب يقربك منه شوية.

قالت الأم في غضب ومازال يوسف لا يفقة شيئًا كالاصم في مولد السيد البدوي.

الأم: اتكلم يا دكتور قلقتني فيه ايه؟ إنت كدة بتقلقني علي يوسف.

أحني الطبيب ظهرهالي الأمام، والشفقة والألم يعتصران وجهه قائلًا:

الطبيب: أحب أعرفك يا أستاذة أن يوسف... ويطلق نفسًا طويلًا شعر يوسف أنه دهرًا ظل ينتظر كلمات الطبيب في تلهف تارة ولا مبالاه تاره اخري لا يعلم ماذا تخبئ له الأقدار حتي عاد، الطبيب وحدث يوسف هذه المرة.

الطبيب: عايزك تتمالك نفسك يا يوسف، إنت قوي وقدها إنت عندك كانسر علي المخ.

يصمت الجميع في هدوء غلب هدوء المقابر، لا يقطعه سوي نهنهات أمه ويوسف لا يفهم شيئًا مما حدث سوي أنه سوف ينال أخيرًا ما كان يحلم به دائمًا وهو: الموت....

* * *

الفصل الخامس:

"المستشفي"

دقائق قليلة، اعتدت التفكير فيها، غريبة غربة الابن الضال من أبيه وسط زحمة الناس أعلم نهايتي، فهي محتومة مكتوبة بقلمي لم أعهد الندم يومًا الا قليلًا أعذب نفسي بنفسي أتسابق زمنيا مع عقلي، أيهما يصل بي إلي الجنون أولًا عقارب ساعتي دائمًا متوقفة، ثابتة، غير متحركة كأصنام الكعبة القديمة الصماء أتلاشي تدريجيًا بفرض الحب ووجودها حيًا، وبفرص الأمل وزيفه أعيش لم أهرب من مواجهة نفسي يومًا بيومًا لم أواجه الناس يومًا تناقضي يلفت أنظار من يهيمون في مترو محطة الشهداء زومبي، لا يشعرون إلا بالمختلف عنهم رائحة وشكلًا أتقاضي راتبًا من الكره والحقد حتي أرضي به شهوات عقلي المريض.

أتنفس ارضاء لجسد متهالك صحيًا ألعن يوميًا تفكيري، لا يزيد إلا أضرام النار في كنار ودبت في هشيم كل يوم أذهب إلي فراش نومي وكأنه كفني، يسحبني إلي أعماق الموت الأسود ولا أدري إلا واليوم الآخر يدب في الحياة التي لا أثق في احتياجها كل هذا و أنا أجلس أمام نفسي، أعاتبها معاتبة الحبيبة للحبيب لم أعلم هل الحب موجود حقا؟!! أم هو وهم من أوهام عقلي الذي ما كنت دائمًا امتيقنا انه سراب لا غير، كضباب بحيرة في شتاء قارص البرودة.

الطبيب: اللي عندك دا يا يوسف مش عندك إنت لوحدك! في ألف عندهم المرض بس اتعالجوا و عاشوا لازم تكون عندك ثقة بالله.

يوسف: ثقه بالله هههه..

يضحك يوسف ضحكات هيستيرية حتي ظن
الجميع بأنه قد جن.

الطبيب: لا يا يوسف ماتخليش اليأس يسيطر عليك خلي عندك إيمان بالله.

يوسف: تصدق يا دكتور أنا عمري ما كنت مؤمن ولا بفكر في حاجة غير نفسي! مسلم بالأسم بس! اللي بيربطني بالاسلام بطاقة وبس! عمري ما حسيت بحاجة روحانية من صلاة أو صوم أو أي شئ من ده! وجاي تقولي إيمانك ومش إيمانك.

ترتسم علي وجه يوسف نظرات ارتياب تتحول إلي ضحكة صامتة، تتحول إلي درب من دروب الجنون المزاج العام أصبح يشع سودًا ويوسف لا يعلم ماذا يفعل؟ تخرج منه كلمات و كأنها لاول مرة يتحدث فيها وأمه لا تزال دموعها تكوي قلبه قبل أن تكوي قلبها فهو لا يريد أن يجعلها تعيسة في الدنيا بعد أن ابتعد عنها والده في هذه الاثناء تتحدث والدته مستفسرة:

الأم: ممكن يا دكتور تقولي تشخيصك للمرض
وايه الخطوات للعلاج وإيه هو المرض أصلًا.

يرد عليها الطبيب في حزن يشعر به تجاه يوسف وحالته:

الطبيب: حالة يوسف
زيها زي حالات كتير، بس المشكلة هنا في حاجة واحدة! إن الورم كان حميد، الأشعة أثبت لي إن الورم تاريخه بيرجع لعشر سنين فاتوا وإنه كان ممكن السيطرة عليه لو كنا اكتشفناه بدري الورم ما هو إلا خلايا بتنمو نمو غير طبيعي شاذ، بيأثر علي وظيفة المنطقة اللي عليها الورم عشان كده يوسف ماكانش بيحس بصداع قبل السنة دي علي حسب كلامك، لان الورم تحول لخبيث، وهنا لازم اقول لكم إن يوسف لازم يخضع لبرنامج للعلاج يوسف الورم اللي عنده ورم علي الفص الأيمن من المخ، ودا مركز حساس جدًا وصعب الوصول ليه بالعمليات بس، ولازم له برنامج كامل ممكن بعديها يرجع يوسف للحياة الطبيعية، بس مش أوي لأنه ممكن يأثر علي حركته أو علي نظره بعدين بس ماتقلقوش نتيجة العمل مضمونة، والعلاج إن شاء الله يجيب نتيجة.

الام: يعني إنت شايف ايه يا دكتور.

الطبيب: أنا شايف إن يوسف يبدأ يجهز نفسة للعملية ويجهز نفسه نفسيًا لو حصل لقدر الله أي أعراض جانبية احنا هنعمل عملية عشان نشيل أكبر جزء من الورم من علي المخ

الا ونظرًا لأن الورم كبير، فاحنا هنتبع برنامج علاجي كيميائي أو إشعاعي حسب رغبتكم بس أنا برجح الكيماوي لانه بيقضي علي الخلايا أو يخمدها إلي أمد طويل.

قاطع يوسف والدته والطبيب في دهشة قائلًا:

يوسف: خلاص يا دكتور أنا مش عايز أتعالج! أنا مش عايز اتعالج يا دكتور أنا راضي بنصيبي مش إنت بتقولي ارضي وثق بالله أنا بقي بقولكم مش هتعالج ويلا بينا يا ماما.

الأم: اهدي يا يوسف عشان خاطري اهدي ولما نروح البيت نتكلم.

الطبيب: لازم تعرف يا يوسف إن ده ابتلاء من ربنا يمكن ربنا اختبرك عشان يعرف إيمانك وقوتك ويعيد ترتيب حياتك.

الام: اتفضل يا يوسف عشان تروح وترتاح وبقي نتكلم بعدين لما تهدي من الصدمة.

يخرج يوسف ووالدته والجميع في صمت يكاد أن يتحول إلي طنين نحل يصم الآذان يتجهان إلي المنزل ويدخل يوسف الي غرفته ليجد رقم والده يطلبه، يجيب يوسف ولا تزال دموعه تذرف علي وجنتيه حتي أحس بوجودهما فمسح وجهه وأجاب:

يوسف: أيوا يا بابا.

الاب: اللي أنا سمعته دا حقيقي.

يوسف: أيوا حقيقي ومش هتعالج.

الاب: مش هتتعالج إزاي يا بني إنت غصب عنك هتتعالج! إنت حياتك دي مش ملكك لوحدك! كلنا لينا حق عليك.

يضغط يوسف علي زر الانهاء فهو ليس في مزاج جيد للحياة يغلق موبايله في استسلام للواقع الذي يمر به لا يدري أهي النهاية بكل ماتحمله الكلمة من لذة ومتعة؟أم أنها نهاية حياة عهد فيها إلي النسيان؟ حياة ركيكة لا تتسم بأي نوع من الروح، حياة جامدة رتيبة مملة إلي أبعد الحدود يجلس يوسف عند نهاية سريره موجها رأسه إلي الله، مناجيًا إياه في مرة من

المرات القليلة التي يفعلها، ويتحدث بعفوية كعفوية طفل صغير لا يعلم ماهو الله، ولكنه يسمع والدته تدعيه فيفعل مثلها يخرج نوتته ويكتب:

" الفصل الاخير الي الله..

بتعمل معايا كدة ليه؟ ما أنا كنت بعيد ليه قلبت لي حياتي؟ كنت عايش ومش عايز حاجة تانية! الجنة دي كنت سايبها للي يستحقها ماكنتش محتاج حاجة الدعوات وفرتها، ماكنتش عارف إمتي هقولك الكلام دا، بس خلاص دا وقت مواجهتي بيك يارب! أنا كنت مش عايش، كله كان كام نفس بتنفسه عشان يبقي اسمي عايش! ليه خلتني أحس! ليه بدأت ترجعلي الروح تاني؟ أنا كدة كدة مش محتاجها! وعلي فكرة أنا مش زعلان من إني جالي مرض! بالعكس دا أنا بشكرك إنك هتخليني أفكر! وخلتني اتقرب منك بس أنا دلوقتي تايه، مش عارف أعمل إيه أخيرًا لجأت لك وبطلب منك مساعدة، مش عايزك تشفيني أنا كدة كدة الموت بالنسبة لي حياة اتمنيته من زمان، واديك بتكافئني حياتي كنت مسلمها ومستني نهايتها، لحد دلوقتي أنا مستني نهايتها، شكرًا انك قربت لي النهاية أنا دلوقتي مبسوط"

يغلق يوسف النوتة و يضعها جانبه و ترتسم علي شفاته ضحكة بسيطة ينظر إلي كل شئ حوله، يتملي منه، وكأنه ينظر إليه للمرة الأخيره ينظر إلي أدق التفاصيل في محاولة منه الاسترجاع الصورة الكاملة أمامه.

يريد أن يتذكر أي ذكري جميلة حتي تبهجه في تلك الأيام القاحلة يا الله وعندما يتذكر لا يتذكر سوي صورة آلاء تتوهج أمامه و كأنها طبعت علي جفونه لا يري غيرها و يقول: لمن أتركها؟ لماذا لم أتكبد عناء إخبارها

بحبي؟ انتظرت حتي فاتت الفرصة! تشتعل عيناه بالدموع وكأنها جازولين تحرقها وبدأ في تذكر اللاشيئ يسمع طرقات علي باب غرفته أنها أمه المكلومة لما سمعته من الطبيب.

الأم: يوسف حبيبي افتح عشان خاطري عايزة اتكلم معاك شوية.

يوسف: ماما مش عايز أتكلم مع حد ثم يخرج لابه وينظر الي صور آلاء أمامه.

الأم: يا حبيبي خليني بس اتكلم معاك شوية هما نص ساعة وقرر بعدها اللي إنت عايزه.

يوسف: ماما ماتخافيش أنا خلاص هتعالج بس مش عشان نفسي لا عشانك إنتي، عشان ماتعيشيش لوحدك بعدي، عشان ماتعيشيش طول عمرك حزينة أنا مش عايز أشوف في عينيكي نظرة حزن تاني أو زعل إنتي أجمل حاجة حصلت لي في الدنيا دي يا ماما مش عايزك تخسري حياتك بسببي هتعالج يا ماما عشان تعرفي إني بحبك أوي.

يفتح الباب ليجد أمه تذرف الدموع وكأنها شلال في غابة استوائية، تضمه إلي صدرها ضمة أحس يوسف بحنان الدنيا وما فيها احس ولأول مرة في حياته ماذا تعني كلمة حب؟ ماذا تعني له أمه؟ لم يكن يعرف أنه يحبها هكذا! لم يكن يعرف أنه لا يريد إلا إسعادها ضحكت الام في غلبة علي أمرها وقالت له:

الأم: هكلم الدكتور يحضر كل حاجة ويحضر للعملية والمستشفي وغيره ربنا يشفيك يا حبيبي إن شاء الله.

يوسف: إن شاء الله يا ماما.

يشعر يوسف بتدفق المشاعر إلي روحه وكأنها قطرات ماء يشربها الصائم علي الإفطار يفتح تلفونه ليجد في تلك اللحظة محمود يتصل به ويستغرب جدًا ان احمد وحسام لم يعدا يتصلا به وأن محمود هو الذي أصبح يلزم يوسف في كل شئ.

يجيب يوسف: أيوا يا محمود.

محمود: إنت إيه يابني مخك تعبان مش قلتلك مليون مرة ماتقفلش الموبايل دا.

يوسف: معلش يا صاحبي.

محمود: مال صوتك.

يوسف: مافيش.

محمود: عملت ايه عند الدكتور؟

يصمت يوسف في لحظة توقفت فيها الحياة، ولم تعد الكرة الأرضية تدور حول الشمس، واختفي فيها القمر من مكانه ليرد بكلمات كأسهم مصارع ثيران أسباني.

يوسف: كانسر علي المخ.

محمود: نعم؟! انت بتقول إيه يابني كانسر إيه.

يوسف: زي ما بقولك يا محمود كانسر علي المخ بقاله عشر سنين من بعد الحادثة.

يصمت محمود في محاولة منه لامتصاص الصدمة التي عصفت بعقله وجعلته يقف حائرًا لا يريدأن تخرج الكلمات من فمه:

محمود: اتأكدت من اللي بتقوله ده؟

يوسف: لسه جاي من عند الدكتور و قالي علي الخبر.

محمود: لا اله الا الله مش عارف أقولك إيه يا صاحبي إنت قدها! وأبوس ايدك شد حيلك وماتفكرش في أي أفكار هبلة أنا عارف إنك ممكن تقولي إني مش هتعالج.

قاطعه يوسف:

يوسف: أنا فكرت في كدة فعلًا، بس افتكرت أمي يا محمود، مش عايزها تعيش لوحدها أو تعيش حزينة صعبت عليا أوي.

محمود: عفارم عليك ربنا يهديك يابني هو دا الصح هتروح إمتي المستشفي؟

يوسف: كلها يومين و هروح.

محمود: عايز أشوفك.

يوسف: بلاش يا صاحبي الفترة دي مش عايز حد يشوفني وأنا كدة.

محمود: أنا كدة اطمنت وزيادة تسلم يا صديقي هريحك يا يوسف وهبقي أكلمك كل يوم أطمن عليك.

يوسف: هههههه كل يوم دا إذا عشت يا حوده.

يذرف محمود بعض الدموع ويغلق ليترك يوسف إلي نفسه التي لا تتحمل مثل كل هذه الضغوط يتذكر آلاء يتذكر وجهها الملائكي يتذكر كل تفصيلة بوجهها لا تخرج من باله دائمًا هي وأمه.

وكأنه يعد نفسه إلي مابعد الموت حتي لا ينساهما آلاء التي أعادت إليه جزءًا من روحه، وأمه التي جعلت المشاعر تعود إليه من جديد.

تنادي أمه عليه:

الأم: يوسف ميعاد العملية اتحدد بعد بكرة.

يوسف: ماشي يا ماما.

تدق الساعة بالحادية عشر حيث عادوا من عند الطبيب في العاشرة مساءًا يخلد يوسف للنوم وصديقه المقرب يزوره الصداع، لا يبالي به ويخلد إلي نوم لم يشهده من قبل نوم أحس بطعمه وكأنها المرة الأولى والأخيرة التي ينام فيها.

يتذكر آلاء، و يتخذ قرارًا وهو نائم فمعظم قرارات يوسف يتخذها نومًا حيث يكون ذهنه صافيًا لا ينزعج بالاحلام مثل باقي البشر يتواصل مع نفسه وقرر أن يعترف لـ آلاء بحبه انتظر اليوم الذي يفصله عن العملية يستيقظ عصرًا في تمام الثالثة بتوقيت المنصورة، ودون تفكير يتوجه إلي الشرفة في محاولة منه لرؤية آلاء للمرة الأخيرة قبل العملية فهو لا يعلم أسيعيش مرة أخري ليراها أم تكون الأخيرة ولن يعترف لها بحبه يتجه إلي الشرفة ليجدها في مكانها المعتاد، تضع سماعات الأذن لكم يحسد الموبايل والمطرب أو المطربة التي تستمع إليهم الآن فقد نالوا شرف أنهم يسمعون من قبل الاء، وتمني أن يكون هو المطرب حتي يعبر لها عما يخلج بصدره ولكنه يعلم أنه لو اتيحت له الفرصة فسيستغرق عمر سيدنا نوح حتي يعبر لها عن حبه يراها تدخل إلي الداخل وقرر أن يراقبها حتي يتسني له فرصة مقابلتها واستمر في مراقبتها حتي وجدها تنزل إلي الشارع الهادئ صباحًا ليرتدي ما يقابله ولا يعلم قلبه لماذا يخفق هكذا؟ فلم يعهد له بذلك ينزل إلي الشارع ليجدها تذهب إلي السوبر ماركت ينتظرها حتي تخرج ليذهب ويحدثها وتكاد روحه مع كل خطوة يخطوها ناحيتها أن تفراق جسده في تعذيب حتي يقف أمامها مناديا: لو سمحت، ولا يكاد يصدق

أنه يقف امامها أمام ملاكه الحارس توقع أنها سوف تتركه وتذهب، ولكنه تفاجئ بأنها وقفت في إنصات له:

الاء: أيوا.

يوسف: ممكن كلمتين بس مش هاخد من وقتك أكتر من دقيقتين.

مممممم، تضم آلاء شفتاها في حيرة من أمرها أمن الممكن أنه سوف يصارحها الآن؟ أمن الممكن أن يكون يوسف عوض الدين وقع بحبها؟ لترد عليه بابتسامة أذابت قلب يوسف:

آلاء: اتفضل أنا سامعة.

يوسف: حضرتك بصي، أنا أول مرة في حياتي أعمل كدة، أول مرة أكون بالقرب دا مع بنت أول مرة أقف قدام واحدة جمالها عدي حدود الخيال، لان مافيش حد جميل زيك كده إنتي لو كنتي موجودة أيام زمان كانوا عبدوكي من الاخر أنا مش بعرف أتكلم أصلًا واللي بعمله ده مش عارف أنا بعمله ليه..

ينظر لها والحب يكاد أن يعميه وهي يدق قلبها حتي ظنت أنه يسمع دقات قلبها آلاء... آلاء أنا بحبك يصمت ليشعر أن حجرًا من حجار بلال ابن رباح قد أزيلت من علي صدره وهي كاد أن يتوقف قلبها من الفرحة والمفاجئة ليكمل حديثه آلاء.

يوسف: انا عندي عملية بكرة ومش عارف هعيش ولا هموت، بس أنا قررت إني أصارحك بحبي لاني لو ماكنتش صارحتك كنت هندم باقي عمري ومش عارف هعيش وأشوفك تاني ولا لا؟ مش منتظر منك أي رد كفاية عليا إني اعترفتلك دي آخر أمنية في حياتي أسيبك بقي عشان مش عارف أقول إيه تاني يتركها و يرحل دون أن يسمع منها ردًا لا يعلم حقيقه شعورها: أهي تحبه أم معجبه بشكله فقط؟ لا يعلم هو الآن لا يحمل همًا اذا مات فقد أخرج ما كان يكتمه طوال هذه المدة منذ أن رآها ليعود إلي البيت والراحه النفسية أصبحت ترتسم علي وجهه، ليجد أمه تقابله بابتسامة تشرح قلبه وتقول:

الأم: مالك يا يوسف مبسوط كدة ليه فرحني معاك.

يوسف: مبسوط يا ماما الحمدالله أنا مرتاح أوي دلوقتي دعواتك.

الأم: ربنا معاك يا حبيبي يلا نجهز الشنطة عشان لازم نروح دلوقتي المستشفي عشان العملية بكرة الصبح الساعة 9 وهنبات هناك من النهاردة عشان المفروض متكلش حاجة قبل العملية بتسع ساعات أنا كلمت الدكتور وهو مجهزلك الأوضة اللي هتقعد فيها و كل حاجة جاهزة يلا عشان العملية في القاهرة عبال مانوصل هناخد وقت.

يوسف: حاضر يا ماما تعالي نحضر الشنطة.

يدخلا إلي غرفته وما بها من فوضي عارمة تلتقط والدة يوسف بعض الملابس من هنا وهناك وتكمل ما جاءت من أجله يرتدي يوسف ملابسه، وتغلق والدته الشقة بعد خروجهما وقلب يوسف ينبض ولا ينفك ينظر إلي شقة آلاء شقة 56، حتي وصلا إلي محطة الحافلة ويستقال الحافلة المتوجهة إلي القاهرة و كأن يوسف يشعر بتوجهه إلي الموت وكأن الحافلة علي الصراط المستقيم، إلي طريقه لوضع يوسف بمكانه الصحيح، إلي الجحيم، إلي أصدقائه الزبانية، إلي ملائكة العذاب يشعر أنه سوف يوفي عهده إلي ملك الموت أخيرًا وليس نادمًا كل ما عليه هو الابتسامة لطمأنة والدته ولطمأنة نفسه فهو يشعر باقتراب الموت لأول مرة في حياته يصل يوسف إلي المستشفي ليجد في انتظاره طاقم طبي يضم العديد من الأطباء والممرضات حتي وجد الدكتور حامد في استقباله، وأشار للطاقم بالاستعداد وتجهيز ما يتم تجهيز من اجل العملية.

فالطاقم الطبي يضم دكتور حامد وأخصائي تخدير وأخصائي أورام ودكتور مخ وأعصاب آخر وطبيب للعلاج بالكيماوي وطبيب نفسي والممرضات في غني عن التعريف يبدأ الدكتور حامد في شرح ما سيتم ليوسف في خلال الساعات القادمة:

الطبيب: بص يا جوو إنت هتاكل كويس دلوقتي عشان إنت ماينفعش تاكل أو تشرب قبل العملية ب 8 أو 9 ساعات، فتهدي خالص وماتفكرش بحاجة وإن شاء الله هتعدي علي خير بعد العملية هتقعد معانا في المستشفي إسبوعين تحت المراقبة، وكمان عشان العلاج الكيماوي هيستمر معاك 8 أسابيع، وإن شاء الله بعديها ترجع لينا بالسلامة ما تقلقش دلوقتي يا بطل خش الأوضة اللي محضرهالك والممرضة هتجيب لك الاكل لحد عندك.

يوسف:شكرا يا دكتور.

الطبيب: ماتشكرنيش دلوقتي، اشكرني بعد العملية لما تنجح وترجع لينا تاني بإذن الله.

يخرج الطبيب من الرواق المؤدي إلي الغرفة المجهزة ليوسف إلي غرفة العمليات للاطمئنان أن كل شئ جاهز وفي موضعه علي تحدث قليلًا مع الطاقم الطبي لوضع اللمسات الأخيرة قبل الذهاب إلي النوم.

دخل يوسف إلي الغرفة المجهزة له وتصادف أن تكون الغرفة برقم 56 اندهش يوسف وابتسم ابتسامه صغيرة، وضع حقيبته ارضًا وجلس علي السرير يفكر في آلاء وفي أصدقائه الذين لم يتصلوا به حتي للاطمئنان عليه، فهذا كله أثار حنق يوسف كثيرًا فهو كان يعتبرهم عائلته بعد أمه سوي محمود الذي لم ينفك أن يتصل به كل ساعة للاطمئنان عليه، وعلي أحواله، ومتي سوف يبدأ العملية، وإلي متي سوف يغيب؟ وانتقل بتفكير إلي آلاء مرة أخري، يتذكر ردة فعلها عندما أباح لها بحبه وبسر من أسرار حياته عندما تذكر ملامح وجهها لم يكن في باله سواها، وكيف لا؟ وهي من شغلت باله أيام وليالي لا تعد ولا تحصي أراد أن يعود أدراجه إليها حتي ينال من نصيب رؤيتها جانبًا أصبحت علاقته بربه إلي حد ما مقبولة حيث بدأ في الدعاء إليه ومناجاته أن يراها مرة أخري وبعد دقائق في السفر بعقله وخياله إلي بلاد ما وراء النهر بالنسبة إليه، فهي تبعد عنه الآن مسافات وطرق وحتي أمنيات فهي مبعثة الروح، كاشفة المجهول، ذائقة الفرح، منتجة بالنسبة له ثواني وسمع طرق علي الباب ليسمع صوت أنثوي من خلفه، ليتأكد أنها الممرضة التي جاءت بالأكل له فتح الباب ليجد ممرضة مكتنزة الجسم، ناعسة المنظر، تقاتل النوم مقاتلة جندي اسبرطي لجيوش فارس، تحمل صينية مليئة بالطعام، كل ما لذ وطاب، وهي لا تدري بأن يوسف ليس له علاقة جيدة بالأكل دخلت من باب الغرفة، وعدلت من حجابها، وحاولت جاهدة ألا توقع الصينية وضعتها علي الطاولة المجاورة له وقالت في صوت يغلبه النعاس:

الممرضة: ياريت تاكل عشان العملية بكرة صعبة ومش هتاكل بعديها لفترة وكمان مش هتعرف تشرب سجاير والدكتور خايف عليك عشان إنت بتشرب ودا فيه خطر علي صحتك.

يوسف: شكرًا وإن شاء الله هاكل ومش هشرب سجاير و هشرب اللبن وأنام بدري.

ابتسمت الممرضة بابتسامة خفيفة وقالت:

الممرضة: خلي دايمًا الضحكة علي وشك عشان مش عارف إنت ممكن يكون حالك إيه بعد العملية، حياتك هتتغير ١٨٠ درجة.

الممرضة: نصيحة من أخت ماتسيبش الحزن ياكل كل سعادة في حياتك عشان إنت بجد هتحتاج كل لحظة سعادة في حياتك عشان تفتكرها ربنا معاك ويشفيك.

كلماتها البسيطة أخلت بتوازنه العقلي، لا يعرف لماذا أثرت به هذه الكلمات؟ فربما لبساطتها؟ أم أنها صادقة خارجة بطلقائية وعفوية زيادة عن المعتاد؟ خرجت الممرضة من الغرفة ومازال يفكر في كلماتها.

حاول تناول الطعام فبالرغم من لذته، إلا أنهلم يأكله كاملًا أكل ما كان يحتاجه جسده فعليًا وقرر أن ينام حتي يتذكرها، حتي يتذكر ملاكه الحارس، وهل سيتخلي عنه بعدما عرف حقيقته أم أنه سوف يقف بجانبه إلي حتي يستعيد يوسف حياته ويعود لها محللًا كيف حدث هذا التجاذب بينهم بين فصيلتين لم يعهدا من قبل، الالتقاء الملائكة والشياطين، إلا أن موعد انحدار روح الشيطان إلي الجحيم قد أتي، ونفخ في الصور من أجل عودته الحميدة إلي مكانه إلي الجحيم. نام يوسف واستغرق بالنوم في نشوة، وخوف، ورهبه، وسعاده وجبن مواجهة ما سيأتي له، إحساس مختلف حين تعلم باقتراب نهايتك، حين تدرك أنك علي شفا أن توصل الرسالة إلي صاحبها الأصلي استيقظ علي نفس الصوت الانثوي ليجدها تقف بجانبه وتوقظة برقة وشفقة، وكأنها تعلم مصيره استيقظ وأشارت له بأن يرتدي ملابس المستشفي، و أخبرته أنه سوف يحلق ما لديه من بعض الشعيرات برأسه، و اعطت له بعض الحقن بناء على أوامر الطبيب ارتدي يوسف زي المستشفي وذهب ليحلق رأسه حتي وجد الساعة الثامنة والنصف صباحًا سرت قشعريرة في جسده أشعرته بحياته مرة أخري جلس في مواجهة الشباك الذي بالغرفة مواجه نظره إلي فناء المستشفي، محملقًا في كل شئ حوله، و كأنه لن ينظر إليه مرة أخري، لا يقوي عليا شاحة

نظره عن أي شئ و لو كان بسيطًا، فهذه فرصته الأخيرة لان يجد السلام الداخلي قبل أن يجد السلام الدائم، ليجد الطبيب يدخل إليه ويتحدث إليه بنبرة هادئة حتي لا يوتره.

طلب منه أن يذهبا مع الي غرفة العمليات وقلب يوسف يدق وكأنه نبضات قنبلة ذات موقت وستنفجر في أي وقت دخل يوسف إلي غرفة العمليات محمولًا علي سرير متحرك، ونقله الأطباء إلي السرير المخصص للعمليات ليبدأ دكتور التخدير في عمله يضع قناع الغاز علي أنف يوسف وفمه يطلب منه العد إلي رقم عشرة ليبدأ يوسف العد 1...2....3...4...5...6 ويفقد الوعي كاملًا مسلمًا نفسه إلي أيدي الأطباء يبدأ دكتور حامد في مطالعة الأشعة الخاصة بيوسف، ومعرفة مكان الورم، والتأكد من موقعه وتبدأ المرحلة الصعبة، فبعد التخدير يقوم الطبيب بشق جزء من فروة رأس يوسف في مكان الورم بمشرط وكأنه سيف اخترق جلد رأسه والدم يكاد أن يتفجر منها، والممرضات والمساعدين حول الطبيب، منهم من يقوم بتنظيف الجرح، ومنهم من يقوم بمساعدة الطبيب وإمداده بالمعدات اللازمة تأتي اللحظة الأصعب وهي قطع جزءًا محدد من الجمجمة وتعد من أصعب الخطوات في العملية نظرًا لخطورتها يقوم الطبيب بإحضار ما يشبه المنشار الدائري: منشار كهربي و يبدأ في كسر الجمجمة بدقة صانع ألماس، حتي يقوم بتكوين مربع من عظام الجمجمة في مكان الورم ويخرجها عندها بدأ الجميع في العمل والهرج والمرج حتي لا يودع يوسف الحياة، فهذه أخطر اللحظات علي حياته ينزع الطبيب الغشاء الرقيق المحيط بالورم، ويبدأ في عملية استئصاله يستئصل ما يمكن أن يستئصله نظرًا لكبر حجم الورم فإنه لن يستطيع أن يستئصله جزء عظام جمجمته، وأعاد جلد الطبي نقل يوسف للعناية غرفة العمليات، وتذرف والدته من الدمع ما يكفي لاغراق بلدة يابانية بأكملها.

استقر يوسف منه سوف يتم معالجته بعد ذلك بالعلاج الكيماوي ينتهي الطبيب من العملية بعد استغراقه أكثر من 5 ساعات مرهقة للطرفين، أعاد إلي يوسف جزءًا من عظام جمجمته، وأعاد جلد الرأس مرة أخري وتثبيتها بالدبابيس والمشابك الطبية، وأمر الطبيب الطاقم الطبي نقل يوسف للعناية المركزة حتي يستعيد وعيه وعافيته كانت والدة يوسف لا تزال عند باب غرفة العمليات، وتذرف من الدمع ما يكفي لاغلاق بلدة يابانية بأكملها

استقر يوسف في غرفة العناية المركزة ومنعت والدته من رؤيته تمامًا حتي يفيق مرت تلك الساعات علي يوسف كأنها ثواني و علي والدته وكانها دهر وكأنه عمر سيدنا نوح تهدأ أخيرًا بعدما التقي بها الطبيب وحدثها عن العملية وطمئنها بنجاحها، وطلب منها أن يحدثها علي انفراد في غرفته ليشرح لها بعض الأشياء كان يوسف في ذلك الوقت يهيم بعقله في كتلة الفراغ، لا يعلم أهو الموت أم العودة إلي الحياة مرة أخري ولكنه يعلم أنه في كلا الحالتين أن حياته التي عهد اليها سوف تتغير...

* * *

الفصل السادس:

"ما بعد الحياة"

تدخل والدة يوسف إلي غرفة الطبيب ليبدأ معها حديثا ربما يغير من مجري حياة ابنها بل حياتها ايضًا.

الطبيب: أنا عاوز حضرتك يكون عندك ايمان بالله ودا قدر و مكتوب ولا احب اطمنك إن العملية نجحت وقدرنا نستأصل جزء من الورم و إن شاء الله يوسف هيكمل علاج بالكيماوي ويقوم لنا بالسلامة بس.

هنا تتوقف أنفاس والدة يوسف وتترقب شفاه الطبيب ليفاجئها ويكمل حديثه:

الطبيب: وماخبيش عليكي يوسف مش هيفتكر حاجة بعد العملية، هينسي كل أحداث حياته ما عادا الأحداث اللي حصلتله في المدرسة والكلية يعني تعليمه لأنه الاحتفاظ بالمعلومات في فص آخر للمخ، بس المشكلة إن أي شخص أو أي حدث حصله مش هيفتكره، حتي إنتي مش هيفتكرك المرحلة الجاية مش سهلة عليه ولا عليكي خالص بس لازم نوفر له جو من الاهتمام الزيادة إلي جانب حياته الجاية صعب جدًا ان الإنسان يعيش من غير ماضي أو ذكريات حصلتله، لازم نكون أقويا ومانحولش نعرفة بحياته اللي فاتت خلينا نكون له ذكريات جديدة وحياة أجدد، دي كل الآثار الجانبية إلي جانب رعشة خفيفة في ايده فالجنب الي اتعمل فيه العمليه دا طبعًا جنب العرجة اللي كانت عنده نحمد ربنا إن يوسف عايش الحمدالله.

كل هذا و كأن والدة يوسف قد غطاها التراب، وكأنها دفنت حية، لا تعلم ماذا تقول، لا تعلم ماذا تفعل، تتخبط بداخلها كل شئ من كلمات إلي أفعال تغلق عينيها وتذرف دموعًا ساخنه علي وجنتيها حتي تركت لها أثر تلقت كلمات الطبيب وخرجت لتجلس في غرفة كانت قد أعدت تذكرت كل الذكريات المؤلمة بدلًا عن ابنها تذكرت والدته، أول خطواته، أول اسم نطق به، تذكرت لها، تذكرت المشاجرات بينها وبين عوض، تذكرت سفره بعيدًا

عنها، وكل لحظة عانت من الوحدة بسببه، تذكرت أول أيامه بالحضانة ثم المدرسة، تذكرت الحادثة، وتذكرت لحظات مرت عليها كتلك اللحظات التي تعيشها الآن ابنها في المستشفي ولا تعلم ماذا حدث له؟ أو بالأخص ماذا سيحدث له؟ تمسح دموعها، تتثاقل خطواتها، وتذهب إلي ما كانت تبحث عنه، متثاقلة الخطي اتجهت إليها، ودخلت إلي الباب جذبت كلتا الدفتين وجلست في الصفوف الأولى تترقب عينيه تراقب ميلان رقبته، تتفحص جسده مسجي علي الأعمدة الخشبية، تنظر إليه و تبكي:

الأم: يا مسيح أنا عارفة إنك مش هتسيبه ابدًا في الموقف دا، أنا عارفة وانت عارف يعني ايه شعور بالعجز وحياة العذراء ماتسيبه هو محتاجك زي كل واحد فينا ماهو محتاجك أنا جايالك ضعيفة ومش عارفة اعمل ايه، بس واثقة فيك يا مسيح، ماتسبناش في اللي احنا فيه خد بالك منه، احميه واحفظه "بعد أن دخلت إلي الكنيسة وقامت بدعواتها التي قد أزاحت من علي أثقال قلبها جبال الهموم جلست في إحدي غرف الكنيسة تبكي وتتضرع وتناجي وتتقرب، تقبل الصليب الموضوع علي صدرها، تتقرب و تتباعد تري تارة المسيح يربت علي كتفها، وتارة أخري تري مريم العذراء تطمئنها أحست براحة نفسية تسري في جسدها جعلتها في استكانة عذبة يظهر رقم غريب علي شاشة تليفونها المحمول، لترتشف بعضًا حبات دموعها وترد بصوت متهدج تقطعت به الاوصال:

آلاء: ألو.

ليلي: ألو مين معايا ؟!.

آلاء: مدام ليلي!!.

ليلى: أيوا مين حضرتك؟.

آلاء: أنا آلاء محمود الفناجيلي حضرتك ماتعرفنيش بس أنا أعرفك قريب.

ليلي: اتشرفنا أي خدمة شكرًا.

آلاء: ممكن أعرف يوسف أخباره ايه.

ليلي: طب حضرتك تعرفي يوسف منين.

آلاء: أنا زميلة يوسف في الكلية وجارتكم كمان فالعمارة اللي قدامكم في شقة 56.

ليلي: اهلًا وسهلًا يوسف الحمدالله خرج من العمليات ودلوقتي في فترة نقاهة و هيبتدي كيماوي.

آلاء: اية دة بجد طب الحمدالله كنت عايزة أقول لحضرتك حاجة.

ليلي: اتفضلي يا حبيبتي.

آلاء: يوسف قبل العملية.

آلاء: وقفني وكلمني.

ليلي: كلمك وقالك اية؟

آلاء: اعترف ليا بحبه.

شهقت ليلي وأطلقت تنهيدة مكتومة دليلًا علي الاندهاش مما تقوله تلك الشابة التي لا تعرف طباع ابنها بالتأكيد.

ليلي: طب دا حصل امتي؟

آلاء: حصل قبل العملية بفترة.

ليلي: طب يا بنتي لازم تعرفي يوسف حصله اية يوسف نسي كل شئ حصل له في حياته حتي نساني أنا لازم تعرفي إن يوسف مش هيكون يوسف بتاع زمان لازم نغير حياته، لازم يابنتي تغيريه معايا، بس مش عايزاكي تربطي نفسك بيه، يوسف محتاج رعاية وشفقة مش حب يوسف حياته بتبتدي من جديد مش عايزينه يرجع للي هو كان فيه.

آلاء: أنا مش فاهمة حاجة يا طنط.

ليلي: مش لازم تفهمي كل اللي عايزاكي تعرفيه إني مش هعيش كتير ليوسف وعايزاكي تكوني الإنسانه اللي تغيره بجد للأحسن اوعاكي يا بنتي تحبيه، يوسف مش محتاج صدمات جديدة يوسف لازم يبدأ حياته من جديد يبدأ يعرف إن الدنيا مش كل الحاجات الوحشة اللي كان عايش فيها سلام يابنتي و ماتنسيش كلامي دا.

ويسمع رنين إغلاق الهاتف في الجهة المقبلة من المكالمة ترتبك آلاء، لا تعرف ماذا يجب عليها أن تفعل؟ هي كانت قد اتصلت لتخبرو والدته بأنها بالفعل قد خطبت بعد عدة أيام من حديثه لها كيف الآن أن تصارحها لقد انتهي كل شئ حاولت أكثر من مرة الاتصال ولكن لا يوجد رد اضطربت، لم تعد تعلم ماذا تفعل؟ ماذا يجب أن يكون واجبًا؟ خطيبها طيب، ولكنه لن يتقبل أبدًا وجود شخص آخر في حياتها تتقرب منه، أو تظهر حتي بعض مشاعر الشفقة والحنان، مثله كمثل أي رجل شرقي آخر دارت الأفكار في عقلها كمرجل للقهوة، تتطاير شظايا من عقلها في الاتجاهات الأربعة للكون.

تتصل مرة أخري بوالدة يوسف، ولكن كالعادة لا يوجد رد والآن ياربي ماذا أفعل؟ ألهمني يارب حتي قررت الخروج إلي شرفة منزلها، وتضع سماعات الأذن لتذهب إلي غياهب الموسيقي التي دائمًا ما تحبها وأخذت تفكر علي الجانب الآخر، في الكنيسة القريبة من المستشفي التي يقبع بها يوسف دخل القس وخادم الكنيسة ليري جسد مسجي علي المقاعد الخشبية في المقدمة، ويد يتدلي منها هاتف جوال ويصدر منه الرنين المعتاد الذي ينذر بعدم وجود شحن كافي ليستمر الهاتف في العمل.

ذهب القس بسرعة البرق ليري ذلك الجسد الذي يبدو عليه من بعيد علامات تثير الرهبة توجه بسرعة ليري جسد امرأة في العقد الثالث من العمر، تستلقي علي المقاعد الخشبية، وفي يدها هاتف جوال قد نفذ منه الشحن، وفي اليد الأخرى تقبض علي صليب قد علق في سلسلة التفت حول رقبتها تسمر القس، وطلب من خادم الكنيسة أن يستدعي عربة الإسعاف بسرعة حتي يتسني له أن يساعدها علي الا تفارق الحياة تحسس القس نبض المرأة، لم يكن سوي السكوت هو الذي يسمعه، حتي شعر القس بأنه ضيف غير مرغوب فيه.

ذرف دمعات ساخنة سالت علي وجهه عندما علم أن المرأة قد فارقت الحياة أخذ يقلب يمنة ويسري في محتوياتها حتي يتسني له أن يعلم من هي أو أي شئ يعلمه هويتها وأخيرًا يجد في محفظة جيبها بطاقتها، ليري الاسم ليلي يوسف حنا، المدينة المنصورة يتعجب القس، ويسمع من بعيد صوت عربة الإسعاف تقترب في تحدي صارخ لطبيعة البشر

ارتجف القس، يعلم إلي أين سوف تئول الحياة بهذة المرأة يتعجب أين زوجها؟ لماذا هي هنا؟ دخل المسعفون في محاولة أخيرة لانقاذها، ولكنهم فشلوا توجهوا للقس وسألوه:

- إنت تعرف المرحومة؟

القس: لا والله يا ابني أنا دخلت القاعة عشان أحضر شوية حاجات لقيتهابنفس المنظر، حسبتها نايمة أو مغمي عليها لكن قيست نبضها طلع مفيش خالص أنا كنت مخلي الراعي بتاع الكنيسة يتصل بيكم هو ايه اللي حصلها؟

- لسة مانعرفش كله هيبان في تقرير الطبيب الشرعي.

القس: باسم الرب طب انتو هتودوها فين دلوقتي؟

- احنا هناخدها المستشفي دلوقتي عشان نعرف التقرير المبدئي للوفاة نستأذنك مانقدرش نسيبها أكتر من كدة.

القس: طب استنو يابني أنا هاجي معاكم، شكلها مقطوعة من شجرة.

- تمام اتفضل يابونا.

حمل المسعفون ليلي إلي العربة واتجهوا بها إلي المستشفي الأقرب للكنيسة كانت تلك التي يقبع بها يوسف دخل المسعفون إلي الاستقبال استقبلهم طاقم ممرضات و كانت من بينهم الممرضة التي ترعي يوسف شهقت الممرضة في إشارة منها علي الذهول و الشفقة مجتمعين، ذبل وجهها عندما تأكدت أنتلك المرأة هي والدة المريض الذي يقبع في العناية المركزة انفلت من عينيها دمعات قليلة حتي لم تتمكن أن تستيطر علي نهر دموعها، فتركت العربة التي كانت تحمل ليلي واتجهت إلي غرفة من غرف الأشعة وكأن شالات نيكاراجوا قد نقلت إلي عينيها ماذا سيفعل هذا الشاب المسكين الذي سيستيقظ ليجد أن أمه قد تركته، وأنه وحيد الآن يصارع الماضي الذي لم يعد له وجود عنده ومن جهة أخري، كيف سيكون استقباله للخبر؟ وكيف سيعيش الآن بدون ماضي أو ذكريات تجعله يتشبث بالحياة دقائق حتي دخلت ممرضة أخري عليها الغرفة لتنهرها عما فعلته فحكت لها.

= ايه يا بنتي اللي انتي عكتيه ده، ميس نهاد هتوديكي في داهية وهتخصملك من مرتبك بسبب الهبل اللي انتي عملتيه ده حد يسيب حاله ويجري و يعيط كده اية أول مرة تشوفي حد ميت.

تلاحظ الممرضة دموعًا حقيقية تسيل من وجه زميلتها.

= إيه يابنتي في إيه ؟إنتي بتعيطي بجد؟

- عارفة الحالة بتاعة كانسر المخ اللي دخلت من كام يوم.

= آه عارفاها مالها.

- الواد دا هينسي كل حاجة حصلتله في حياته.

= طب وفيها اية ماحنا عارفين إن دا من الآثار بتاعة العملية.

- اللي ماتعرفوش إن الحالة الي دخلت دي تبقي أمه.

امتقع وجه الممرضة الأخرى في علامة منها أنها آسفة وأنها لم تكن تعلم:

= لا إله إلا الله، ربنا يصبره طب الواد دا هيعيش حياته إزاي بعد كدة؟

- أنا مش عارفة بس ربنا بجد يكون في عونه.

= طب الحالة دي أنا شايفة صليب مرسوم علي كتفه والناحية التانية آية الكرسي الواد دا ملحد ولا ايه؟

- مش عارفة بصراحة إيه حكاية الصليب دا بس باين عليها حاجة خاصة بيه هو.

= مالناش دعوة.

- إنتي ماتعرفيش حاجة عن الحالة دي؟

= لا كل اللي اعرفه إنه كان كانسر علي المخ واتعمل العملية وتقريبًا هينسي كل حاجة في حياته وتقريبًا هيفوق بكرة علي الكتير و هنبدأ معاه كيماوي وبعديها علاج نفسي ربنا معاه.

انتبهت الممرضتان إلي صوت وقع خطوات فهرولتا إلي الخارج و عند خروجهما تذكرت إحداهما شيئًا قد ومض فيعقلها لتتجاهله وتستكمل ماذا كانت تفعل توجه غرفة القس إلي الطبيب الذي فحص حالة ليلي ليسأله عن سبب الوفاة.

القس: لو سمحت حضرتك الدكتور اللي فحص حالة الأستاذة اللي توفت من شوية.

- أها مين حضرتك.

القس: أنا قس الكنيسة اللي جنبكم.

- أهلًا وسهلًا بحضرتك الحالة كانت موجودة عندك في الكنيسة وقت الوفاة صح.

القس: أها أيوا صح يا ابني ممكن أعرف هي توفت ازاي.

- بص يابونا طبيعيه جدًا هبوط حاد جدًا في الدورة الدموية نظرًا لضغط عصبي كبير كان عليها فماستحملتش وتوفت.

القس: باسم المسيح ربنا يقدس روحها.

- بس معلش يابونا إنت تعرف حاجة عن المرحومة.

القس: لا والله يابني أنا لقيتها في الكنيسة، كنت بحسبها مغمي عليها، جريت أقيس نبضها لقيتها ماتت.

- ربنا يرحمها.

- ربنا يرحمها ابنها لما يعرف هيتجنن وهو كمان لسه خارج من عملية كبيرة أوي وصعبة ربنا يكون في عونه، مش عارف ازاي بني آدم هيستحمل كل دا ظروفه صعبة أوي يابونا صلي له.

القس: هو ماله يابني.

- بص يابونا الولد دا جاله سرطان علي المخ وعملنا له عملية، والعملية نجحت بس المشكلة إنه هينسي كل حاجة حصلتله.

القس: يا خبر بجد اللي بتقوله دا يابني.

- أيوا يا بونا بجد وهو دلوقتي في العناية المركزة لسه مافقش هيفوق بكرة علي أقصي تقدير.

القس: طب هما يابني مش من القاهرة صح.

- آه مش من القاهرة من المنصورة باين، و كانت والدته بس هي اللي معاه في وبندور المستشفي، دلوقتي علي أي حد يعرفهم أو حتي قريبهم، دا حتي في حساب للمستشفي لسه ماكملش وإدارة المستشفي دلوقتي مش عارفة تعمل ايه بعد ما عرفت إن الأم ماتت والولد في العناية المركزة.

القس: ممكن أعرف باقي كام من الحساب.

- بس يابونا الولد مش مسيحي الولد مسلم وحتي والده مسلم، اسمه يوسف عوض الدين.

القس: لو سمحت أنا سألتك باقي كام من الفلوس ماسألتكش هما دينهم ايه؟ أظن يابني إن سؤالي كان واضح صح؟

- صح يابونا أنا آسف ممكن تنزل الحسابات تحت وتعرف الباقي كام.

القس: شكرًا يابني.

تحرك القس إلي الحسابات ليجد في طريقه ممرضة متلئة الجسد تستوقفه:

الممرضة: ازيك يابونا.

القس: أهلا يابنتي أنا أعرفك؟.

الممرضة: لا ماتعرفنيش أنا ممرضة هنا وكنت عرفت إن ليلي والدة يوسف عوض ماتت عندكم في الكنيسة وعرفت إنك كمان بتسأل علي الحسابات.

القس: آه يا بنتي كل دا صح خير.

الممرضة: مافيش كنت عايزة أقولك إن الولد يوسف راسم صليب علي إيده، وكمان راسم آية الكرسي.

أكفهر وجه القس في استغراب شديد، لا يعلم لماذا توقفت الكلمات في حلقه؟

القس: طب ودا معناه ايه؟

يا بونا إنت بتقول إن والدته كانت عندكم في الكنيسة، وأنا كمان لاحظت الصليب في السلسة اللي لبساها يبقي أكيد هي مسيحية.

القس: أكيد طبعا يابنتي هي بالفعل مسيحية، بس مش دا المهم المهم دلوقتي دليني علي الحسابات.

بدت علي وجهها الذهول كيف رجل دين مسيحي يدفع حساب علاج شاب مسلم؟ يالها من مفارقة عجيبة توسم القس السؤال في أعين الممرضة وأجابها عنه حتي يرفع عنها الحرج.

القس: احنا يابنتي عباد رب واحد ربنا مافرقناش عن بعض دا حتي في القرآن أية بتقول في مامعناها وما خلقناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا.

اندهشت الممرضة وكأنها تشاهد عرضًا مسرحيًا قد جذب عقلها.

القس: دلوقتي يابنتي دليني علي الحسابات فين.

ربت القس علي كتفها وانطلقا الاثنان يطيان طرقات المستشفي طيًا حتي جاء لها استدعاء علي الجهاز الخاص باستدعاء الممرضات، ليضاء زر أحمر وهو دليل علي أن غرفة العناية المركزة تطلبها استأذنت من القس ولكنه سألها ماذا حدث؟

قالت له أن حالة يوسف ابن ليلي المتوفية قد أفاقت تقريبًا ثم سألها عن مكان غرفته ومكان الغرفة التي يسيقيم بها بعد أن يخرج من العناية المركزة؟

حتي قالت له غرفة 56 لا يعلم القس لماذا هذا الرقم قد أثار فيه بعض من المشاعر المختلطة، و لكنه تجاوزها وأكمل طريقه للحسابات بعد أن انتهي من دفع باقي الحساب، توجه إلي العناية المركزة ليري هذا الشاب الذي بات إن كادت حكت قصته لكانت من

مصنفات الخيال العلمي، بل قصة لا يصدقها عقل بشري يري شابًا من خلف الزجاج، يحمل وشما علي كتفه الأيسر صليب قد رسم بدقة وحرفية كحرفية عامل خزفي شارع خان الخليلي، تحفة مرسومة وكأنها قد رسمت خصيصًا له يا تري ماذا حمل هذا الشاب علي أن يرسم هذا الصليب علي كتفه، بل وفي الناحية الأخرى قد رسمت آية قرآنية؟ حقًا غريب هذا الشاب ثم ألقي نظرة اخيرة عليه واتجه تاركًا المستشفي حتي عاد إلي كنيسته وكل ما حدث اليوم الماضي لا يبارح عقله حتي أما في المستشفي، فقد اجتمع طاقم الأطباء حول يوسف بعد لان لاظهر بعض علامات الاستفاقة الكل لاخذ في ترتيب البرنامج الذي سوف يسير عليه يوسف من علاج فترة النقاهة بالكيماوي إلي وحتي العلاج النفسي؛ لان العلاج النفسي يعتبر من اهم المراحل العلاجية التي سوف يخوضها يوسف، والتي سوف تحدد مسار حياته الجديد وشكلها ارتفع صوت المؤشر الذي يوضح حالة يوسف، أخذ في الارتفاع والصوت يهدر في كل أرجاء الغرفة، والهرج والمرج يسيطر علي حالة الأطباء وكأن قد لدغتهم حية من أدغال أفريقيا أخذت النظرات تتبادل بين الطاقم وبعضه، إلي أن قد اعتقدوا للحظات أنه سيفارق الحياة ولكن معجزة إلهية جديدة حدثت، وهدأ نبضه، وتدخل الأطباء بالحقنو ما يشبهها لتهدئة الحالة، وما أن استجاب يوسف حتي تراخت الاعصاب وتنفس كل الحضور الصعداء بعد حبسًا للأنفس كاد أن يطيح بعقولهم خارج رؤسهم نظر الطبيب المختص بحالته إلي باقي طقم الأطباء والممرضات الحالة تتحط تحت المراقبة الشديدة 24 ساعة.

الطبيب: مش عارفين إيه اللي ممكن يحصله ربنا يستر بجد الحالة لسه لغاية دلوقتي ماستقرتش، ومش عارفين ممكن يحصل إية بعد كده ربنا يستر دلوقتي انا عايز طقم ممرضات جنبه مايسبهوش لحد ما يفوق تمام، تقدروا تتفضلوا وطاقم الممرضات يستني.

خرج الطبيب من الغرفة، وانتظرت الممرضات كما أمر ولكن الطبيب توجه إلي الغرفة المجاورة له، غرفة المريضة الأخرى التي قد أجرت عملية منذ أكثر من إسبوع وتتلقي العلاج الكيماوي غرفة المريضة سمر وسمر طالبة في صيدلة عين شمس، أصيبت بسرطان القلب، ومنذ أن اكتشفت المرض وهي في حالة مغايرة لكل الذين يصابون بذلك المرض الذي يكسر عزيمة أي مريض ويجعله لا يرغب في العيش إلا هي، قد خالفت الطبيعة

البشرية، وملئت رئتيها بهواء التفاؤل، والحب، والمثابرة، والمضي قدمًا في طريق الكفاح ضد ذلك المرض اللعين يدخل الطبيب إلي سمر ليجدها جالسة وقد وصل إليها أسالك العلاج الكيماوي وهي تتلقاه أسبوعيًا وجدها جالسة مبتسمة الوجه، حليقة الرأس، تبتسم في خشوع وحياء لا يجتمعان إلا بالملائكة أفلتت ضحكة من الطبيب في حياء، وهو يراها تقرأ في القران تمس الفؤاد من داخله يدخل الطبيب، ويصدر صوتًا دليلًا علي وجوده.

الطبيب: احم احم أخبار سمر حبيبتنا ايه؟

سمر: دكتور ازيك عامل ايه؟ سمر زي الفل وبتشكرك جدًاا.

تضحك سمر في شكل طفولي عذب يجبرك علي مقابلة تلك الابتسامة بأخري.

سمر: أنا بحبك أوي يا دكتور.

يحمر وجه الطبيب خجلًا:

الطبيب: الله يخليكي يا سمر بس ليه يعني؟

سمر: عشان إنت طيب أوي يا دكتور وساعدتني كتير عشان أعدي اللي أنا فيه ده بجد انا مش هعرف أنسي ليك كل الحاجات الحلوة دي.

تطلب منه الاقتراب لتحضنه حضن بنت لابيها، ليبادلها الطبيب الحضن، و يربت علي كتفها:

الطبيب: شدي حيلك كدة يا عروستنا عايزين نفرح بيكي.

سمر: هههه والله يا دكتور أنا مستعدة ماعندكش عريس.

يضحك الطبيب و يبادلها أطراف الحديث:

الطبيب: والله يا سمر لو عندي ما يغلاش عليكي إنتي عارفة معزتك عندي.

سمر: شكرا يا دكتور.

وقام الطبيب بالخروج وجد سمر تناديه:

سمر: دكتور يا دكتور.

الطبيب: أيوا يا سمر في حاجة؟

سمر: لا بس كنت عايزة أسالك علي حاجة.

الطبيب: اتفضلي.

سمر: هو كان في إيه في العناية المركزة من شوية؟ أنا كنت سامعة دوشة وأصوات وزعيق وكدة، والممرضات ماخرجوش لسه من الأوضة في إيه؟

يذبلوجه الطبيب ويجيبها ومسحة من الحزن تغطي وجهه:

الطبيب: أه يا ستي إنتي سمعتي دي حالة كانت لقدر الله هتموت.

شهقت سمر في محاولة لإخفاء تلك الشهقة، إلا أن أنفاسها قد فضحتها.

الطبيب: آه يا ستي كانت هتموت إسمه يوسف عوض الدين، من المنصورة، والدته توفت إمبارح بليل، وكان عنده كانسر علي المخ، وهينسي كل حاجة حصلتله في حياته ربنا يكون في عونه صلي له يا سمر و ادعيله.

ظهرت علامات الحزن علي وجهها، و في إعلان منها علي بدأ حالة البكاء، أخذت تبكي لما قد سمعته من الطبيب يري الطبيب الدموع فيقدملها قائلًا منديًا:

الطبيب: ادعيله يا سمر ادعيله، هو محتاج دعواتنا كلنا.

خرج الطبيب ليترك سمر في بحر دموعها لذي لا ينضب و أخذت ترتل في القران لعله يعيد إليها بعض من هدوئها وعلي بعد أكثر من مائة كليومتر شمال القاهرة، تجلس آلاء في شرفة منزلها المطلة علي الشارع تتذكر كلمات والدة يوسف، تنتقي كل كلمة من كلماتها، تريد أن تساعده، ولكنها تتذكر خطيبها، تتذكر حياتها المستقبلية معه، لا يمكن أن تربط نفسها بإنسان مستهتر كيوسف، لا يمكن أن تضيع عمرها مع إنسان لا تعلم مصيره ولا حتي هو يعلمه، فكيف تربط نفسها به؟ خطيبها شاب في العقد الثاني من عمره، تخرج من كلية الطب جامعة المنصورة، ووالده يملكان شركة للأدوات الطبية، وكان قد بدأ في إعداد

الشقة التي سوف يتزوج بها آلاء وهو من مستوي تعليمي محترم إلي جانب مستوي مالي وأخلاقي يجبر أيا كان علي تقبل مثل ذلك العريس، إلي جانب ضغوطات والد آلاء عليها ليجبرها علي الزواج منه، فشاب مثل على لا يأتي في العمر مرتين، بل فقط مرة واحدة، ويجب أن تغتنمها العروسة، فلا مجال هنا لمشاعر أو أي شئ تافه بالنسبة للاب فالحب شئ مقدور عليه يأتي بعد الزواج بما يسمي العشرة بين الزوج و زوجته، التعود، الروتين والملل فكثير من شباب هذه الأيام لا يعلم تلك الحقيقة التي قالها سيدنا علي ابن أبي طالب أحبب من تشاء فأنت مفارقه لماذا لا يرحبون بفكرة الفراق وإن كان حتمي في بادئ الأمر ونهايته؟ لماذا يمنون أنفسهم ببنت تكون لهم زوجة وهم يعلمون في قرارة أنفسهم إن كانوا لا يملكون مالًا أو شَقة أو عربه وما شابه ذلك؟

فمصيرهم واحد هو أن تتركهم تلك البنت من أجل من هو جاهز أكثر، ابن عمها الذي يعمل بالكويت مثلًا او شاب ثري من أثرياء المنطقة التي تسكن بها، أو مثل صاحبنا، شاب ذو أصول غنية، لا يعبئ بأي شئ، إن كان هناك آخر يحب تلك البنت أم لا؟ هذا ماتوصلت إليه آلاء إنها لابد أن تغلب المصلحة والانتفاع، ولا تدع للحب أن يسلب منها ما هي مقدمة عليه من ثراء مادي، وإن كان سيحصل علي جسد آلاء حق انتفاع مدي الحياة مقابل ما سيقدمه إليها من أموال وشقة وعربة استقرت آلاء علي أنه لا يمكن لشخص مثل يوسف أن يسلبها فرصة عمرها، وقررت أن تمسح رقم والدته، وأن تغلق الخط الخاص بها، وتغيره، و تغير حتي حساب الفيسبوك الخاص بها؛ لتبتعد كل البعد عن ما يسمي يوسف عوض الدين..

* * *

الفصل السابع:

"كاريزما الموت"

قد مر يومين منذ أن كاد يوسف أن يفارق الحياة، لا يشعر بشئ سوي السواد اللانهائي، سقوط سرمدي في بئر ليس له قرار أو حتي نهاية كل ما يتذكره هو الأصوات التي كانت تناجية في همس تارة، وفي صراخ تارة أخري يصم الآذان تارة، لا يعبئ بما يدور حوله ويتذكر وينادي ويقول في قرارة نفسه صبو لنا بعض الدم المختمر، ولتسمعونا صرخات المعذبين في أقبية جهنم، ولترقص الجثث المتحللة في انتشاء فان لوسيفر والحق يقال راض يعلم لماذا تلك الكلمات تتردد في أذنه لساعات؟ لماذا يشعر دائمًا بان هناك شخص من الجنة قد عين عن طريق الخطأ ليقوم بحراسته وإنقاذه من الموت عدة مرات؟ لماذا ذلك الاحساس عنده؟ أيا تري لأنه يسمع أصوات ولو كانت خافتة إلي جانبه في كل يوم، ولمدة معينة من الوقت، تناجي روحه، تمسه من أعماق أعماق أعماق روحه المعذبة المعلقة بين جنابات الحياة والموت، بين زوايا الظلم والعدل روح معلق بين طبقات السماء السبعة، و إن كانوا سبعًا فهو بالتأكيد بين الطابق الأرضي من الجنة والطابق العلوي من الجحيم، الفناء الكوني البعيد، الذي ما كان دائمًا يراه في قناة ناشيونال جيوجرافيك في برنامج الفضاء لماذا هو المسيطر عليه لماذا؟ لماذا تترتفع نبضات قلبه في تحدي صارخ لعقله؟ التراتيل التي يسمعها كل يوم، و لا يتذكر شيئ لمدة معينة لماذا تستمر؟ لماذا يستمر ذلك المعين من اي كان او لم يكن؟لماذا يستمر؟ لماذا الأسئلة تدور في عقله كبقر تلف ساقية لإخراج المياه من أعماق عقله، كتنورة حديدة تدور لتوليد أمواج وفياضانات من التساؤلات؟ لماذا لا يتذكر؟ لماذا؟ أين أنا؟ أين الوجود الذي دائمًا ما كنت أتسائل عنه أنا بالفعل موجود الآن أم أنا في البرزخ انتظر؟ وهل البرزخ هذا يجعلنا أن لا نكون في اللاوعي؟ يشعر بسائل يسري في عروق جسده ليعطيه استفاقة مؤقتة لبرهات يفتح عينيه ليواجه ورا بيضا شديدًا السطوع، يكاد أن يعميه يغلق عينيه بطريقة لا إرادية، لا يميز الموجودات من حوله، تتزين عيناه برموش وكأنها قد تبعثرت علي أركان عينيه جسده

لا يقوي حتي علي أن يحمله أو حتي أن يرفع يده يشعر بظمأ، أحس وقتها أن حلقه كصحراء قاحلة، و كأنه سيموت عطشًا حتي أحس بتدفق للماء في عروقه، و إن كانت ليست عن طريق فمه فمن أين يا تري أتت تلك الماء و مازال البياض الناصع الذي يعمي الأبصار يغلف الموجودات؟ وبطريقة غير مسبوقة.

حاول يوسف النطق، و لكن تحجرت الكلمات في حنجرته، و كأن الاحبال الصوتية رفضت كل الرفض أن تتحرك ليصدر يوسف خوارا وكأنه ذبيحة يوم عيد الأضحى ذلك الصوت، تلك الترتيل المغمغمة المهمهمة من طرف لا يوجد في الغرفة، لا يشعر به، وكأن الصوت يأتي من جميع الاتجاهات وكأنه موجود فقط بلا اتجاه أو مسار يستطيع أن يحدده يتردد صداه في كل الغرفة وكأن قوانين الفيزياء قد تخلت عن مبادئها وأصبح الصوت بلا مصدر وينتشر من دون موجات بدأ البياض الناصع في الانقشاع تارة تلو الأخرى، يميز الموجودات هذا أنا، ولكني لا أعلم أين أو متي أو لماذا أو كيفما يتحدث؟ أهو أنا بالفعل؟ بدأ يميز هذا سرير، هذه امرأة ترتدي ملابس معينة مكتنزة بعض الشئ، وهذا رجل يرتدي بالطو أبيض قد يتضح فيما بعد من هو، وهذه أسالك تلتفني وكأنها كفني، وهذا وهذا وهذا وأخذ ينظر إلي كل الموجودات، حتي استقرت أذنه قبل عينه علي الذي أو التي يجلس أو تجلس إلي جانبه إنه مصدر الصوت، مصدر محاولًا كمحاولًا أديسون أن يخترع المصباح الكهربائي لتحديد من التراتيل التي حاول يوسف هو أومن مصدر الصوت.

ولكن كإديسون كانت محاولاته تبوء بالفشل، إلي أن أخيرًا قد نجح في تحديد مصدر الصوت، و لكن ليس ماهيته أخذ يغلق عينيه ويفتحها، وفي كل مرة كان يغلقها ثم يعاود فتحها يشعر وكأن عينيه قد خيطت، وفي كل مرة يضطر أن يقطع خياطته عن عينيه حتي يستطيع أن يفتحها لم يتواني في تجربة ذلك لدقائق قليلة حتي استطاع أن يغلقها و يفتحها بكل أريحية نظر وأخذ يتلفت يمنة و يسري، يقابل الموجودات من حوله باستغراب، لا يعلم ماذا قد حل به يحاول أن يتذكر أي شئ،أن يقاوم هذا الإحساس المميت بفقدان كل شئ لا يعلم ألديه صديق؟ ألديه أم؟ ألديه أب؟ ألديه أي كائن حي يهتم بأمره؟ يعاود محاولات النطق، ولكن كل من حوله يثنونه عن ذلك فيجد الرجل ذو المعطف الأبيض يربت تارة علي كتفه، ويتكلم بصوت خافض يكاد يوسف الا يسمعه، وكأنه يتكلم من

أعماق كهف سحيق النهاية لا يوجد له قاع أو حتي حوائط وكأن الصوت الذي يحاول الوصول إلي أذن يوسف في محاولات مستميتة كمحاولات سلحفاة أن تجاري يوسين بولت: أعظم عدائي العالم وفي النهاية، نجح الصوت في اختراق حاجز الصمت، وأن يصل إلي آذان يوسف، و كأنه يحاول أن يرسلالي يوسف أن هناك رسالة مفادها: لا تجهد نفسك ولكن يوسف بهزة خفيفة من رأسه قد أوضح للرجل ذو المعطف الأبيض أنه تفهمه، وسكنت حالته، وبدأ في الاسترخاء أخذ يتذكر، و لكن هناك حاجزا شعور غريب يجتاح كل خلية في جسده، إنه كحاجز قلندية في فلسطين يمنعه من أن يتذكر شيئ لم يعد قادرًا علي التذكر، أو حتي معرفة من يقف أمامه،أو حتي مع من يتحدث، أو حتي أن يعرف اسمه يعتصر مخه تفكيرًا يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يعرف حتي اسمه، فيفشل، فتسيل من عينيه دمعًا تبسيطه هادئه التدفق يقابها منديلا من الشخص الذي يجلس إلي جانبه، الذي لم يحدد هويته إلي اللحظة التي تتفدق فيها دموعه التي ما كانت دائمًا غاليه ونفسيه وكأنها ابريز خالص لا يشوبه شائبة لا تدمع عينيه إلا علي غالي وإن لم يكن في حياة يوسف أي من الأشياء الغالية التي تجعله يبكي يفتح عينيه في حركة لا إرادية حتي يتبين له من يمسح بمنديل دموعه، ليري كائن ملائكي حليق الرأس، إلا من بعض الشعيرات التي تتناثر علي استحياء علي جانبي رأسها يدغدغ ذلك المشهد ذاكرته وخواطره؛ ليحاول التذكر، ولكن لم يستطع، لم يقدر حتي علي أن يعرف من هذه التي تجلس إلي جانبه؟ تمسح دموع عينيه التي تتدفق تدفق أنهار افريقيا الوسطي من هذا المالك؟ تمر عليه ذكريات نزقُة طائشة المعالم، تقابل عقله بابتسامة مستفزة منها، وكأنها تقول له لن تتذكرًا، أبدا و لكنه يقاوم، و يحاول أن يتذكر اسمه، ولكن لا شئ الخواااء، النهايات المستمرة بلا انقطاع، نهايات بلا نهايات تتقابل في منتصف عقله لتقول له لا تجهد نفسك، فأنت الآن بلا ماضي ولا حاضر، وإن كان المستقبل بالنسبة لشخص مثلك أكثر غموضا وفي إشارة من الرجل ذو المعطف الأبيض إلي المرأة المكتنزة بعض الشئ، قامت من مكانها لتضع في شئ بلاستيكي معلق إلي جانبه الأيمن وموصول بيدهر سعة تحديدًا ثواني وذهب يوسف في ثبات عميق، و بدأ البياض الناصع الذي كان يغلف الموجودات في الانقشاع وبدأ يحل محله سواد بلا معالم، وكأن النور قد انقطع فجأة عن أواصل عينيه،

وكأن عقله تركه في بلاد ليس لها حدود مر يومًا وأكثر من يوم، و يوسف في ثبات عميق لا نهائي، لا يعلم متي سينتهي، إلا أن التراتيل التي دائمًا ما يستمع إليها جعلت جسده ينتفض في لاشارة منه أنه بدأ في الاستفاقة بدأ يوسف في أن يغلق عينيه ويفتحها بسهولة نسبية، وإلي حد ما أصبح قادرًا علي أن تخرج من فمه كلمات مثل عطشان، أو النور، أو فين كانت في بادئ الأمر كلمات غير منطقية للذين يجلسون حوله، ولكن بعد بضع أيام أصبح قادرًا علي تكوين بعض الجمل مثل: عايز اشرب، وطوا الصوت هي فين كان هذا الأمر يثير استغراب الطبيب المعالج؛ لسرعة تحسن يوسف واستجابته اما سمر التي لم تكد تفارقه فكانت هي مصدر التراتيل التي بدأ في التعود عليها، بل وإدمانها.

كانت بعد أن سمعت من دكتور حامد أنه كاد أن يفارق الحياة في يوم من الأيام الماضية، وبعد أن طلب منها الطبيب أن تدعي له بل وتصلي له، أخذت قرارًا كاد أن يمنعها منه الطبيب، إلا أنها أصرت قررت أنها سوف له بعض من آيات القران، إلي غرفة يوسف كل يوم لمدة ساعة، حتي ترتل تذهب وأن تجلس إلي جانبه كانت تراقبه في نومه، ففي كل مرة تأتي إلي غرفته تنتصب عينيها علي تفاصيل وجهه الذي كان قد خسر بعض الكيلوجرامات، ليظهر تجاعيد وجهه من أن شاب مسلم، ويدعي يوسف نقش ونتوؤات عظام وجهه كانت تستغرب الصليب علي ذراعه الأيمن، وآية قرآنية لم تتبينها سمر علي ذراعه الأيسر وما زاد الطين بلة هو وجود آيه من الانجيل علي صدره كانت قد لمحتها عندما انكشف عنه غطاء المستشفي للجزء العلوي لجسده لتراها كانت كل يوم تأتي إلي يوسف وتجر ورائها حقنة الكيماوي، وكأنه كتب عليه أن تكون ملازمته الوفية، قرينه الانثوي، صديقه الوحيد في تلك الأيام و بعد عدة أيام، بدأ يوسف في الاستفاقة التامة، وأخذ في تمييز كل ما حوله من موجودات مثل الطبيب والممرضة، وحتي هي بدأ في تمييزها بعد أن نبت بعض الشعر ليغطي رأسها، وليظهرها في هيئة نبيلة من نبلاء العصور الوسطي، تداوي جريح حرب يترد في عقله بعض الأسئلة من هي؟ ماذا تفعل هنا؟ هل تعرفني؟ هل أعرفها؟ كل ما قد عرفه عنها أنها مسلمه لما رأي القران يتدلي من سلسة قد علقتها حول رقبتها لم يعبئ كل ما كان يريد أن يعرفه من هي؟ من أين جائت؟ ولماذا تبقي إلي جنبه ساعات بعدما كانت تجلس لساعة واحدة، ترتل بعض التراتيل؟ لماذا دائمًا يري

تلك الابتسامة العذباء التي تجعله لا إراديًا يبتسم ويعاودها الابتسام في كل مرة ابتسمت له فيها؟ تأتي الممرضة لتسحبها من كرسيها المتحرك إلي غرفتها كان يجلس طوال الليل يفكر من هذه؟ وكان هذا السؤال دائمًا ما كان يأرقه أكثر من سؤال من أنا؟ ولكن بعد مرور الوقت، وجدها تقضي عنده في الغرفة أكثر مما تقضيه في غرفتها وفي يوم من الأيام كانت قد غادرت الغرفة بعدما جلست معه لثالث ساعات متواصلة، تقرأ له، وتضحكه أحيانًا وتتسمر أحيانًا اخري أمامه عندما جائت الممرضة المكتنزة سألها بصوت لم يستعد عافيته بعد.

يوسف: يا انتي اسمك ايه؟

الممرضة: اسمي داليا.

يوسف: طب يا داليا أنا مش فاكر حاجة خالص ولا حتي فاكر اسمي أنا مين.

تنهدت داليا الممرضة في إشارة منها أنه لم يحن الوقت بعد للبدء في البرنامج النفسي، فالبد من لا أن ينتهي من برنامج الكيماوي أو بص أنا ماقدرش أقولك أي حاجة دلوقت، كل اللي أقدر أقولهولك إنك هتبقي كويس، وهتعرف كل حاجة قريب أوي بس انت ماتستعجلش.

نظرت إليه نظرة أخوية حانية، وقد استقبل يوسف كلماتها بهدوء.

يوسف: طب سؤال تاني.

الممرضة: اسألتك كترت بس يلا مش مهم عايز ايه؟

يوسف: هي مين؟

الممرضة: قصدك علي مين؟

يوسف: البنت اللي كل يوم تيجي تقعد معايا بالساعات وانا حتي ماعرفهاش دا انا حتي ماعرفش اسمها.

الممرضة: آه انت قصدك علي سمر؟

إذن اسمها سمر اسم يذيب المشاعر حتي وإن كانت متحجرة مثل مشاعره تتسع عيناه في فرحة طفولية لم يعهدها قبلًا:

يوسف: سمر اسم جميل أوي هي مسيحية صح؟

الممرضة: لا مسلمه.

يوسف: طب هي بتعمل ايه هنا؟

الممرضة: بص يا سيدي دي كان عندها سرطان علي القلب والحمدالله عمليتها نجحت ودلوقتي قربت تخلص الكيماوي و تبدأ فترة نقاهة.

ابتسم يوسف لما قد عرفه من الممرضة، و ابتسم أيضًا أنها قد قاربت علي الشفاء ولكن بذكائه المعهود قد غير مجري السؤال.

يوسف: لا أنا مش اصدي حالتها ايه؟ أو هي في المستشفي ليه؟ أنا عايز أعرف هي بتيجي الأوضة بتاعتي أنا ليه؟ اشمعني أنا بقي..

فلتت ضحكة ذات صدي مرتفع في الغرفة، لم تكن من الممرضة بل كانت من ند الان تقف ولم تكن علي كرسي متحرك ولكن تستند إلي الأرض بعكاز قد طلي باللون البمبي الذي يشد الانتباه فور رؤيته قررت الممرضة أن تتركهما علي سجيتهما وتخرج من الغرفة إلي انتهاء اللقاء:

يوسف: ايه بقي؟

رد يوسف عليها في ابتسماه اغرورقت عيناه فيها بالدموع التي لا يعرف لماذا سالت أو ما مصدرها؟

سمر: ايه كنت عايز تعرف انا باجي هنا ليك الأوضة عشان إيه؟

يوسف: بصراحه لا.

امتقع وجه سمر لرده الصريح.

يوسف: أنا كنت عايز أعرف إنتي بتيجي كل يوم تقريبًا ولمدة طويلة، وتقعدي جنبي لساعات، ومابتتكلميش أحيانًا و ساعات بتقريلي من ومابتتكلميش أحيانًا وساعات بتقريلي من ومابتتكلميش أحيانًا وساعات بتقريلي.

ضحكت سمر بطريقتها المعتادة، الضحكة الطفولية البريئة.

سمر: يا عم ماتركزش بس أهم حاجة إنك كويس دلوقتي شد حيلك كده عشان القاعدة وحشة وإنت شكلك مش بتحب القاعدة في مكان واحد، وشكلك كدة مش عارفني أنا.

لم تكمل سمر جملتها حتي بادرها يوسف قائلًا:

يوسف: انتي سمر مريضة هنا في المستشفي؟

سمر: الله دا انت متابعني بقي وعارف عني كل حاجة.

يوسف: لا والله مش كل حاجة يادوبك أنا عرفت إن اسمك سمر و بس مش اكتر.

سمر: ماشي يا معلم أنا جايه بس عشان أقولك إن أنا فاضلي يومين تالتة وأمشي من المستشفي، فكنت عايزة اقعد معاك شوية.

اكفهر وجه يوسف لما قد سمعه وكأنه شعر أنه بالفعل قد ينت بالخطأ من الجنة لتكون الي جانبه فكيف يكون إلي جانبي مالك و أنا لم أعهد إلي الملائكية بصفة؟ أنا شيطان جامح، هارب من جوانح الجحيم لاحظت سمر نظرة الحزن التي اعتلت وجه يوسف فبادرته بكلمات تصبره.

سمر: بص يا عم ماتزعلش كدة.

تفلت ضحكة بسيطة من بين شفاة يوسف.

سمر: بص دا اكونتي سمر يوسف بالانجلش ماشي دا رقمي تمام يا معلم خليني بقي اشوفك أو حتي أسمع صوتك ماتنساناش ودلوقتي عايزة اسألك حبة أسأل.

بضحك اتمتقطعة تفتقد إلي العافية: اتفضلي.

سمر: انت مين؟ اسمك ايه؟ حكايتك ايه؟

بهت وجه يوسف من هذه الأسئلة البسيطة التي لم يكن يعلم منها أي شئ ولم ينطق بنبت شفه كل ما فعله هو أنه صمت لاحظت ذلك سمر وحاولت تغيير الموضوع.

سمر: أنا أسفة ماكنتش أقصد أنا نسيت سوري يا يوسف.

يوسف: ماتتأسفيش يا سمر مافيش داعي للأسف.

وفي محاولة منها لتلطيف الجو.

سمر: ياعم هو حد طايل ينسي كل حاجة يابني إنت عندك أوبشن جديد مش عند أي حد دا انت كدة تمام أوي يابختك.

يوسف: هههههه والله يا سمر مش عارف لما تمشي هعمل ايه ومين هيقرالي تاني من القران الا صحيح هو فين؟

سمر: يابني هو أنا أقدر أمشي من غيره لحظة.

جلست سمر و أخرجته من حقيبتها، و بدأت في الترتيل، حتي دخلت داليا الممرضة وانهت اللقاء بكلماتها.

الممرضة: سمر دكتور حامد عايزك وإنت يا عم يوسف شد حيلك بقي عشان تحصل سمر ونخلص منك.

وهنا ضحك الثالثة في عفوية عذبة واتجهت سمر إلي الطبيب ليخبرها أنها قد كتب لها تصريح الخروج، ولكن ستبقي تحت المتابعة لمدة ليست بالقصيرة تمردت دمعات في عينيها وأعلنت سقوطها من فوق تلال الدموع المنحسرة في مقالة عينيها تقبلت الخبر بضحكتها المعتادة، وأخذت طريقها مرة أخري لغرفتها استدعت الممرضة داليا خصيصًا لثواني معدودة، وأقبلت داليا إلي غرفة سمر ودار الحوار بينهم كالتالي:

الممرضة: ايوا يا سمر محتاجة حاجة؟ مش محتاجة مساعدة إني أرتب معاكي حاجتك؟

سمر: لا شكرًا يا داليا أنا عايزة منك حاجة تانية.

الممرضة: قولي يا حبيبتي عايزة إيه.

سمر: أنا عايزاكي توصلي الورقة دي ليوسف.

مدت يدها الصغيرة إلي كفي يد داليا و أعطتها ورقة مكتوبة، ولكن في استغراب من داليا.

الممرضة: اية الورقة دي يا سمر مكتوب فيها ايه؟

سمر: مش عايزاكي تقرأيها حتي يا داليا لما امشي من المستشفي ويوسف يخلص كيماوي ويتكتبله خروج لازم تديها له تمام.

الممرضة: حاضر يا سمر هبقي اديهاله المهم دلوقتي جهزي شنطك وحاجتك يلا.

سمر: حاضر.

الممرضة: أسيبك أنا بقي عشان عندي حالة لازم اروح لها.

سمر: اتفضلي.

وأغمضت عينيها في لحظة من اللحظات التي يكون قد تغلب فيها القلب علي العقل، وضغطت علي شفاها، وأخذت تلملم كل ما يمت لها بصلة في هذه الغرفة في مكان ليس بعيد عن غرفة سمر، كان يوسف يحاول أن يتذكر و لو بضع ذكريات، ولو حتي اسمه لماذا لا يصرح له الطبيب بكل شئ عن حياته؟ فهو حتي لم يصرح له بإسمه و هو في تفكيره العميق، سمع طرقات علي بابا غرفته و بصوت تعلوه الهزيمة سمح للطارق بالدخول كان الطبيب قد جاء ليجلس معه قليلًا.

الطبيب: ازيك يا بطلنا عامل ايه؟

يوسف: الحمد الله تمام يا دكتور كويس بدأت أحس بتحسن خفيف.

الطبيب: الحمد الله طمنتني دلوقتي احنا هنتجهز لمرحلة جديدة في حياتك الكام يوم الجايين دول هيتبني عليهم كل شئ في حياتك، من ساعة لما تخرج من المستشفي لحد عمر طويل إن شاء الله أهم حاجة عايزك تتعامل مع الدكتور النفسي كأنه صاحبك وأخوك وكل عيلتك، ولو لمدة الكام يوم الباقين ليك هنا تمام يا بطل.

يوسف: تمام يا دكتور هعرف حياتي كده ولا لسه؟ أنا حاسس إني مستعد.

الطبيب: و أنا كمان يا بطل عارف إنك مستعد هتعرف أنا خبيت عنك كل ده ليه بس وبعدين هتشكرني.

يوسف: شكرًا ليك يا دكتور قبل أي حاجة إنت أنقذتني بعد ربنا.

الطبيب: أنا ماعملتش غير الواجب شد حيلك يا بطل كمان ساعة او اتنين هتقعد مع الدكتور مصطفي، أخصائي العلاج النفسي حضر نفسك يا بطل.

يوسف: حاضر يا دكتور.

وانصرف الأخير، وبقي يوسف في غرفته يحارب الظنون والأفكار التي بدأت تأخذ حيز الفراغ الذي يحيط به من كل جانب جلس يفكر من أنا؟ هل لي عائلة؟ ما اسمي؟ يا تري ما شكل والدتي؟ هل هي موجودة؟ وإن كانت فأين هي الآن؟ هل يا تري لدي أب أم هو ميت؟ وأن لم يكن فأين هو الآن؟ هل كان لدي أصدقاء؟ أم عانيت الوحدة طوال الطريق، طوال رحلة الحياة التي قد خضتها، والتي سوف أخوضها لاحقًا؟ هل سأبقي مع روحي حتي أكمل ما سوف أبدأ؟ هل ياتري سوف أري سمر مرة أخري أم ستتبخر مع رحيقها المغادر للمستشفي؟ يا الله لا تتركني وأنا هكذا فأنا لا أعلم البداية حتي أخاف من النهاية، فأنا علي شفا أكثر من حفرة و لا أعلم إلي أين سيؤدي بي هذا الطريق؟ كان قد مر من الوقت ساعة كاملة ويوسف يجلس في غرفته ينتظرو يفكرو كأنهما وجهان لعملة واحدة الانتظار والتفكير من منهم يكون إله للآخر؟ أم الوقت هو سيد الاله في تلك المعادلة صعبة التحليل طرقات خفيفة علي باب الغرفه يخرج يوسف صوتا واهنًا ليأذن للطارق بالدخول.

الدكتور مصطفي: ازيك يا بطل عامل إيه؟

يوسف: أهلًا و سهلًا مين حضرتك.

الدكتور مصطفي: بص يا سيدي من النهاردة ممكن تعتبرني أي حاجة في الدنيا أنت عايزها صاحبك، أخوك ولو حتي البنت اللي بتحبها.

انفرجت ضحكة خفيفة من بين شفتي يوسف.

الدكتور مصطفي: أنا يا سيدي دكتور مصطفي الشوري، مختص العلاج النفسي هنا في المستشفي ها بقي جاهز عشان نتكلم شوية مع بعض.

يوسف: أيوا أنا جاهز و مستعد لكل اللي هقوله يلا نبدأ.

الدكتور مصطفي: استني شوية يا عم اهدي بس انا مش هعرض الأسئلة إنت اللي هتعرضها وأنا هاجاوبك.

يوسف: ماشي يلا نبدأ.

الدكتور مصطفي: قبل مانبدأ لازم تعرف إنك اللي في ايدك تبتدي حياتك أو تنهيها يا بطل علي العموم نبدأ بالاساسيات.

يوسف: اسمي ايه؟

الدكتور مصطفي: انت اسمك يوسف عوض الدين.

يوسف: يعني أنا مسلم.

الدكتور مصطفي: أيوا مسلم يا جوو.

يوسف: طب ايه الصليب المرسوم علي دراعي دا وآيه القرآن؟ عرفت هي موجودة ليه؟

الدكتور مصطفي: نخلي الأسئله الصعبة دي بعدين شوية.

يوسف: ماشي أنا منين؟ فين عيلتي؟ فين أصحابي؟ أنا عندي كام سنة؟ في كلية ايه؟

الدكتور مصطفي: إنت يا يوسف من المنصورة كنت عايش فيها طول عمرك إنت ووالدتك، ووالدك كان علي طول مسافر بره في الخليج، وهو علي وصول لمصر عشان تتقابلوا تاني للأسف يا يوسف مفيش حد من أصحابك قدرنا نوصله كل شئ كان متعلق بيك وبحياتك القديمة يا يوسف انتهي، ماتحولش تفكتر، هنحاول مع بعض نبني حياتك الجديدة، اللي ناس كتير أوي نفسهم يبدأ من الصفر زيك كدة عشان يصلحوا أخطاء زمان أنا عارف إنك ممكن تكون زعلان لأنك حاسس إنك مش عندك ذكريات سواء

للطفولة أو المدرسة أو حتي السنة اللي انت قعدتها في الجامعة انت يا يوسف في كلية صيدلة، في سنة أولي، و عندك عشرين سنة أما بخصوص والدتك فهي اسمها ليلي يوسف.

يوسف: طب هي فين؟

الدكتور مصطفي: مش عارف أقولهالك إزاي يا يوسف والدتك توفت أثناء لما كنت في العمليات أنا عارف إن دا خبر صعب عليك، بس انت قوي، وأنا عارف كده كويس إنت ماكنتش ملتزم دينيًا يا يوسف، بس في آخر أيامك بدأت تقرب من ربنا، و بدأت تعيش حياتك علي الطريق الصح.

أسفر كلام الطبيب عن فيضان من الدموع قد تخطي الجسر الذي صنعه يوسف لنفسه قد علم الآن، ليس لديه أم ترعاه، أباه كان بعيدا عنه طوال تلك الأيام والسنين الفائتة كيف سيقابله مرة أخري؟ لا يعلم اخذ صوت بكائه يعلو، و أخذ يجهش بالبكاء في غيرة مبالاه للطبيب الذي حاول مرارًا وتكرارًا ان يهدأه، ولكنه استطاع أخيرًا و هدأ يوسف، ولكن الأفكار في جوانب عقله تستعر نارًا تارة وجليدًا تارة أخري ثم أكمل الطبيب كلماته التي قد كانت نزلت علي عقل يوسف كحمم لبركان كان قد انفجر منذ ثواني في خبر حلو يا يوسف وعايزك تركز عليه شوية في الطب النفسي في قاعدة بتقول إن المريض بفقدان الذاكرة بيبقي تذكره للأحداث القديمة أسهل وأسرع بعكس الأحداث الجديدة بعد فقدانه الذاكرة يعني انت ممكن في يوم من الأيام ترجعلك ذاكرتك يا يوسف ودا اللي هنحاول نشتغل عليه مع بعض اتفقنا يا جوو وبعدين ياعم أنا أهو اعتبرني صاحبك، ولو عايز أي حاجة تقولي أو ما يوسف رأسه في قبول لعرض الطبيب السخي فهو لا يستطيع أن يرفضه و هو لا يملك من العالم الآن سوي والده ورقم تيليفون سمر ليس لديه أي شئ يمت بحياته السابقة.

الدكتور مصطفي: دلوقتي يا يوسف والدك هيوصل بليل أو الصبح بالكتير عايزك تسامحه وتبتدي حياة جديدة معاه انت ماكنتش تعرف ظروفه.

يتحسس يوسف الندبة علي حاجبه ويفكر، يا تري من أين لي بهذه؟ ولكنه يتذكر أنه لا يتذكر.

يكمل الطبيب كلماته:

الدكتور مصطفي: انت يا جوو عندك عرجة بسيطة في رجلك ماتبانش خالص ماتحاولش تفكر فيها عشان ماتديهاش أكبر من حجمها وقبل ما تسأل جت لك منين احنا يا يوسف مش عارفين عن ماضيك كتير والدتك الوحيدة اللي كانت عارفة عنك كل حاجة، وبعد ما فقدناها مبقاش عندنا مصدر للمعلومات عمرنا ما هنبني حياتك علي كدب يا جوو وثق جدًا دلوقتي علي استعداد إنك تعيش حياة طبيعية، بس انت تقوم لنا بالسلامة يا بطل دلوقتي أسيبك شوية مع نفسك، ومش عايزك تفكر في أي حاجة سلبية فكر إن دا ابتلاء من ربنا وإن شاء هتعديه أقوي مما كنت يا يوسف فكر إن اللي حصل دا عشانك أنت، وربنا إن شاء الله مش بينسي حد، ولا بيبتلي حد إلا عشان هو بيحبه افرح يا يوسف ربنا بيحبك.

كانت لكلمات الطبيب وقع غريب علي مسامع يوسف وكأن هذه الكلمات تتسرب إلي وجدانه، إلي أعماقه، وكأنها ترتسم علي جدران عقله كي تكمل ما فقده خرج الطبيب، ولم تخرج كلماته من عقل يوسف كان يومًا مرهقًا ليس جسديًا ولكن نفسيًا سرح يوسف في المرآة التي تقبع في إحدي زوايا الغرفه أخذ ينظر إليها في تمعن غريب، وكأنه يخاطب من يقبع في الجهة الأخرى للمرآة، وكأنه شخص آخر أخذ يتحاور معه وكأنه صديق له، يغضب أحيانًا ويضحك أحيانًا ويصمت أحيانًا و يغفو أحيانًا وأخيرًا غفا في غياه بالدواء القوي الذي كان مجبر علي أخذه يقف علي حافة جبل قد اعتاله بعض الثلوج، يتطاير الوشاح الذي كان يرتديه، يتنشق نسمات هواء عذباء ذات برودة تتسل إلي خياشيمه لتعلن احتلالها لخلاياه يغلق عينيه في انتشاء، ويهم بالقفز، إلا أن يدا قد أمسكته من خلفه، وصوت أنثوي ناعم قد تخلل أذنيه وفي جملة مقتضبة قالت: لا يا يوسف لسه المشوار طويل خلي بالك أنا معاك علي طول و جنبك، اوعي تنسي يفتح يوسف عينيه، ليجد نفسه في غرفة المستشفي، يرقد علي سريره، و تلتفه الاسلاك مثل كفنه، يصحو علي يد

رقيقة كانت ما تحاول إيقاظه، وها هي تفعل، ليخرج صوت ضعيف، صوت من استيقظ لتوه من النوم، ليجد داليا الممرضة تقف إلي جانبه وتحدثه بصوت رقيق يغلبه أيضا نعاس:

الممرضة: اصحي يا يوسف والدك وصل امبارح بليل و مارضيش يصحيك، واستني لحد الصبح، وهو قاعد في الأوضة اللي جنبك كان بايت طول الليل هنا جنبك علي الكنبة، بس مع صلاة الفجر صحي، وصلي، وجهزناله أوضة تانية جنبك، وهو دلوقتي عايز يدخلك.

يوسف: ماشي يا داليا دخليه.

قالت بصوت أنثوي جريئ مغايرًا لما كانت تتحدث به من قبل:

الممرضة: اتفضل يا أستاذ عوض.

يطل رجل في العقد الرابع من عمره، قوي البنية، مازالت تظهر عليه علامات الشباب إلا من خصلات بيضاء تظهر علي استحياء في جوانب شعره الأسمر سمرة الليل دخل الرجل يحنو رأسه في مشهد الا يوصف، وكأنه مشهد في فيلم من إخراج جيمس كاميرون ليقف أمام ابنه وكأن الموقف اختلف، وتبادلت الأدوار، ليصبح الأب الابن، والابن الأب، وكأنهما يحاولون أن يستمدا القوة والإيمان من بعضهما البعض عندما رأي يوسف ما يدعي والده ومضت في رأسه صورة ما، أو ربما مشهد عربة، وضحكات، وحب عائلي يجمعه بهذا الرجل ولكن في أسرع من الثانية انتهي المشهد، وأخذ ينظر إلي هذا الرجل في استغراب وحب، يحاول أن يخرجه ويظهره إليه، وإن كان لا يعلم ماذا يجمعه به من ذكريات؟ هل هي سعيدة أم حزينة؟ هل كان نعم الاب؟ هل كان نعم الابن؟ أسئلة في كلي عقليهما يتقاذفانها بين بعضهم الآخر، ليكسر الصمت حركة خفيفة من الأب باتجاه الإبن، وفي يده قد أمسك بما يشبه صورة ليخرجها إلي وجهه ويضعها أمام يوسف يجلس بجانبه و ينظر كل منهما الآخر إلي الصورة، وبدءا في البكاء ولم يكن إلا من والد يوسف سوي أن تكلم بتلقائية وعفوية طفل في السابعة من عمره لم يكن علي لسانه سوي كلمة واحدة "أنا آسف يا يوسف آسف أوعدك مش هسيبك لحظة تانية في حياتك، هبقي جنبك علي طول سامحني يابني سامحني".

وما كان من يوسف إلا أن رد عليه مسامحك يا والدي.

استمر الوالد والابن في البكاء، واخذ الأب يتمتم بكلمات يغلبها الدموع ويقول :سامحيني يا ليلي.

ونظر إلي صورتها التي أحضرها لابنه وغاصا الاثنان في نوم عميق، كل منهما يحمل تعب الآخر.

* * *

الفصل الأخير:

"الطريق إلي الحياة"

يجلس عوض الدين بجانب ابنه بعد ليلة عصيبة علي كلاهما، يتأمل في وجهه الذي كست طبقة من الوهن و التعب علي أرجائه يتمعن ويتسائل لماذا؟ لماذا قد تركتهم؟ لماذا لم أتمسك بعائلتي؟ لقد أعمتني النقود وما خالفها تركت عائلتي حتي لم أعد أجد منها ما يقيمني أو حتي يساعدني زوجتي التي كنت أحبها، وحاربت المجتمع و التقاليد و أهلي، وتخطيت كل العقبات حتي تزوجتها، تركتها للوحدة تنهش في ثنايا عقلها وجسدها ووجدانها آثرت جمع النقود بدلًا من إنشاء عائلة تحبني وأحبها يتذكر الحادثة التي وقعت عندما كان يوسف عمره 10سنوات يتذكر عدم انتباهه لانزلاق العجلة الأمامية للعربة، صوت الاصطدام ويوسف يصرخ من الالم يتوقف عقله وقلبه في آن واحد، يذرف دمعات ساخنة علي وجنتيه وقدمه قد تهشمت تمام يكمل نظر إلي ابنه أين انتي يا ليلي حتي تكوني بجانبي في تلك المرحلة الصعبة؟ تركتيني وأنا لازلت أحبك ولكني متجمد المشاعر، قاسي القلب، لا أظهر مشاعري بسهولة حسبتك تعرفي منذ أن تقابلنا في فرح صديقي مينا ورأيتك، لم يهمني وقتها ما دينك؟ أو ما عقيدتك؟ فقط أحببت حب عشاق القرون الوسطي قيس وليلي، لم يصلا إلي مستوي الحب الذي أحببته لكي تقربت منك يومها وسألتك عن اسمك، لم تجيبي، وحسبتني أني أعاكسك. احترامك، هدوئك، صلابتك، قوتك، ومرحك، كلها صفات اكتشفتها من الوهلة الأولى لم أنزل عيني ولو دقيقة واحدة من عليكي كنتي قد تملكتي مني سألت الجميع عنك لا أحد يعرفك كنتي تجلسي في جانب العريس من المعزومين تيقنت أن الوحيد الذي قادر علي مساعدتي هو العريس مينا بعد انتهاء العرس وشهر العسل توجهت إليه سألته واستوضحت منه وطلبت منه أن يخبرها أنها تعجبني اشتاط غضبًا في بادئ الأمر، ولكن عندما وجدني جاد هدأ، وقرر مساعدتي رتب للقاء يجمع بيننا دون أن تعلم هي كانت عبارة عن غذاء للاحتفال بالزواج مع مينا وزوجته جائت، عرفت اسمها، تيقنت أنها هي المختارة، حاولت التقرب منها، ولكن سد منيع

حصينه تحصن القلاع، تبعد أي كائن من الاقتراب الي أسوارها، إترفض و تتمنع تكررت اللقاءات وفهمت ليلي أني أحبها حقًا لم تدر ماذا يحدث لها؟ تراها تنجذب إليه تعجب بشخصيته المرحة، وإن كان صمته كان زاد غموضه هي الأخرى عندما ألقت عليه النظرة الأولى في فرح علي عقب ابن عمها مينا، انقلبت لارجاء قلبها رأسًا عند ذلك علمت أن هناك شيئًا مميز الشاب صامت ذو هيبة تستطيع أن تسحر أجمل الجميلات عندما حاول التقرب إليها في الفرح ضحكت ضحكة الانتصار، ولكنها رددته قطعت كل السبل المؤدية إليها، ولكن بعد عدة اللقاءات التي جمعتهم، لم تتواني في إظهار بعضا من الإعجاب له، تعلم المخاطر التي تلف بعرقتهما من كل جانب حاربت معه تقاليد المجتمع حتي تزوجا في نهاية الأمر بعد تلك الموجة من الذكريات التي فاضت في وجدان عوض نظر إلي ابنه ليجده قد استيقظ ودار الحديث فيما بينهم:

الأب: يوسف

يوسف: نعم يا بابا.

الأب: ياه كلمة بابا دي وحشتني أوي منك يا حبيبي.

يوسف: ربنا يخليك ليا.

الأب: كنت عايز آخد رأيك يا جوو في حاجه.

يوسف: خير يا بابا قول.

الأب: أنا عايزك ترجع معايا تاني تسافر، تبعد عن كل حاجة وحشة كانت هنا، تبتدي حياه جديدة، تعرف ناس جديدة تمحي كل حاجة وحشة كانت ليك هنا، كل ذكري مؤلمة خلتك تحزن في يوم، كل حاجة انت نسيتها يا يوسف أنا عارف، بس وجودك هنا مش هيفيد، لا دا هيضر يا جوو، وأنا اتفقت كمان مع الجامعة هناك ورتبت ليك السفر قولت ايه.

أخذ يوسف يفكر في كلام والده، فرصة جديدة للابتعاد عن كل شئ، للابتعاد عن حياتي السابقة، لبدا حياة خاصة بي ألاكون ملك نفسي، وأصنع نفسي، وأن اختار الحياة بدل

الموت الآن علمت معني كلام دكتور مصطفي "انت اللي بتختار" في حركة مفاجئة وبصوت يملؤه التحدي.

قال: موافق يا بابا.

تعجب عوض من سرعة استجابة ولده علي العرض الذي قدمه إليه، ولكن فرحته كانت أكبر من أن ينغص عليها شئ آخر، ابتسم في ود وقال له:

الأب: تمام يا يوسف، أول ما الدكتور يكتب ليك خروج من المستشفي هنسافر علي طول وأنا كنت اتفقت معاه كمان علي الإجراءات وايه أحسن المستشفيات اللي نقدر نكمل علاج فيها.

ابتسم كل منهما الآخر، وخرج الأب إلي الغرفة المجاورة، وعاد بألبوم للصور يجمع يوسف وعوض وليلي دي بقي هدية رجوعلك ليا بالسلامة حاجة ليك إنت يا يوسف هترجعلك حاجات حلوة كنا عايشها مع بعض، حتي لو مش فاكرها بس هتعرف علي الأقل إنها كانت موجودة.

نظر إليه يوسف في ود وحب غير مصطنعين بالمرة، وهز رأسه في امتنان وخرج الأب ليري ماذا كان يفعل.

مرت الأيام ويوسف غارق في الألبوم الذي منحه إياه والده، لا يتذكر، لكنه يضحك في امتنان وود وجاء الطبيب إلي غرفته و طرق الباب، سمح له يوسف بالدخول:

الطبيب: ازيك يا جوو عامل ايه النهاردة.

يوسف: أحسن بكتير أوي يا دكتور تمام الحمد الله.

الطبيب: كويس جدًا، أنا خلاص هكتبلك علي خروج، واتفقت مع المستشفي اللي هتسافر عشان تتعالج فيها برة، وكل حاجة جاهزة انت هتبقي تحت المتابعة، ومش عايزك تتشاقي، افتكر كلام دكتور مصطفي كويس إن احنا اللي بنصنع واقعنا مش حد تاني حياتك انتي اللي اخترتها، وانت اللي هتعيش بيها، ربنا يوفقك يابني.

يوسف: شكرًا يا دكتور، لوالك بعد ربنا كان زماني ميت شكرا ليك يا دكتور.

واحتضنه يوسف في حضن أبوي، وجو قد أسعد الطبيب قبل يوسف إن ذلك الشاب الذي قد جاء قبل العملية، يتنكر لوجود الخير في الحياة أصبح الآن واحد من أصحابه دخلت داليا الممرضة إلي غرفة يوسف بعد أن خرج الطبيب بثواني،

الممرضة: ازيك يا يوسف عامل ايه دلوقتي؟ أنا سمعت إن الدكتور كتب ليك خروج.

يوسف: اه يا داليا هخرج بكرة إن شاء الله.

الممرضة: الحمدالله يا يوسف بص، في كذا موضوع لازم أكلمك فيهم.

يوسف: في ايه اي داليا خضتيني.

الممرضة: ماتتخضش ولا حاجة، أول حاجة لو عايز تعرف إيه سر الصليب اللي علي دراعك وتعرف مين كمان دفع ليك فلوس المستشفي لازم تروح للعنوان ده.

مدت يدها بورقة وأعطتها له فتح الورقة بتوتر، العنوان كنيسة القديس ماريجرجس.. شارع.. القس.

يوسف: ايه دا يا داليا؟

الممرضة: دا يا يوسف لو عايز تعرف ايه سر الوشم اللي علي دراعك أما الحاجة التانية وهي الورقة دي.

يوسف: وايه دي كمان؟

الممرضة: دي ورقة من سمر طلبت مني اديهالك قبل ما تخرج من المستشفي وإني مابصش فيها.

تعجب يوسف من كل ذلك، ولكنه في حركة اطمئنان مصطنعة هز رأسه ذهب إلي غرفة الطبيب يستأذنه في الخروج لمدة ساعة من المستشفي وافق الطبيب بابتسامته المعهودة، وسأل داليا عن العنوان بالضبط حتي يتسني له الذهاب إليه خرج متسارع الخطي، يطوي الأرض طيًا، يحملق في الوجوه يا تري من ذلك القس؟ ولماذا قد يعرف عني

شيئًا؟ ياربي الهمني الصبر والهداية وتحمل الانتظار يلقي نظرة أخيرة علي الورقة التي أعطتها له داليا، يحملق ويستوقف أحد المارة طالبًا عونه في إيجاد ذلك العنوان، داله عليه وأشار له أين تقع الكنيسة تحضر لما سوف يواجه، ماذا يعرف عني؟ وكيف عرف عني؟ لا يهتم، ولا يعطي بالًا، المهم أن يجد ما يبحث عنه دخل الكنيسة في احترام طبيعي، رهبة المكان تجعله يتثاقل الخطي، يتردد في الدخول، ويفكر في الرجوع مرة أخري لتحضير شنط السفر للانطلاق إلي الخارج، لكنه وجد يد تربت علي كتفة في حنان التفت للخلف فوجده قس يقف أمامه و يتدلي من صدره صليب كبير بادره بالحديث قبل أن يبدأ:

القس: انت يوسف صح؟

تعجب يوسف من كيفية معرفة اسمه، وظهر التعجب والحيرة علي وجهه

يوسف: أيوا انا يوسف عرفت اسمي منين؟

القس: أنا كنت جيت المستشفي يا يوسف وشفتك وانت في العناية المركزة أخبارك ايه دلوقتي.

يوسف: أنا الحمد الله تمام، وصحتي بدأت تتحسن.

القس: الشكر للرب كويس يا يوسف، أنا فرحتلك أوي، والله اعلم أنا كنت بصلي ليك وبدعي ليك قد ايه.

يوسف: ربنا يخليك أنا كنت جايلك النهاردة الصراحة عشان أعرف منك شوية حاجات.

القس: اتفضل يابني قول.

يوسف: في المستشفي في ممرضة مليانة شوية ادتني عنوانك، وقالتلي روح له لو عايز تعرف الوشم اللي علي دراعك دا ليه؟ و لو عايز تعرف مين دفعك فلوس المستشفي مين اللي دفعلي فلوس المستشفي.

ضحك القس في حنان أبوي وقال له:

القس: أنا يا يوسف، كنت هتترمي في الشارع وتموت عشان فلوس، وبعدين دي مش فلوسي دي فلوس ناس متبرعة للكنيسة عشان الخير، وانا استأذنتهم، وهما رحبو جدًا انت متفاجئ ليه كده؟ احنا اخوات يابني، وبعدين أنا أول واحد شاف والدتك ربنا يقدس روحها قبل ما تموت.

هنا اقفهر وجه يوسف وعلت بعض الدمعات خده وهمت بالنزول، إلا أن منديل القس قد استقبلها بدلًا من الأرض:

القس: ماتعيطش يا يوسف أنا هقولك الوشم دا جالك منين، مع إني ماعرفكش قبل كده بس استنتجتها الصراحة انت والدتك يا يوسف كانت مسيحية، وتوفت هنا علي الكنبة دي، توفت وهي بتدعيلك، وهي بتصلي ليك، توفت وهي ماسكة الصليب أمك يا يوسف ماتت وهي بتحبك، اوعي تقلق، هتلاقيها جنبك في كل مكان، وفي كل حته، روحها مش هتسيبك تضيع أبدًا، هتساندك طول حياتك، وحتي ساعة لما تموت أوعي تنسي والدتك يا يوسف والدتك هي الشئ الوحيد والإنسان اللي وقف جنبك طول حياتك، ودا كان باين عليها، داليا الممرضة مارضتش تتكلم معاك عشان عارفة إنك ممكن تحس إن دي معلومات غلط الدكتور كان موصيها تقولهالك، بس صدقني داليا حكتلي والدتك كانت بتعيط قد إيه وبتدعيلك قد إيه.

وفي وسط كل هذا، كان يوسف يجهش بالبكاء بكي وكأنه لم يبكي في حياته قط خارت قواه علي الأرض وجلس انتظر أن تنضب عيونه من الدموع، انتظر أن يكون لدموعه نهاية خرج يوسف هائمًا علي وجهه أراد ألا يعود إلي المستشفي الآن، قرر الذهاب في جولة أخذته الشوارع والاذقة تبعده تارة وتقربه تارة، حتي سمع آذان المغرب يضوي في سماء القاهرة المآذن تتألألا، يصدح أصواتها في سماء القاهرة الملبدة بالغيوم مس هذا النداء قلبه، أحس بقشعريرة تسري في جسده، تتغلغل في ثنايا عقله، تبث الرهبة والطمأنينة في آن واحد اقترب من جامع صغير بعض الشئ، وقف أمامه، يرمقه نظرات حادة خائفة، تتنقل من جهة إلي جهة أخري تتسمر عيناه كلما وجد شخصًا يدخل إلي الصلاه وجد نفسه تجره إلي باب المسجد، هو حتي لا يعلم الوضوء، لا يعلم حتي حركات الصلاه ولا يعلم ماذا

يجب أن يقول ارتفع الآذان مرة أخري أخذ جسده يرتجف وقف حتي أحس بكتف رجل كبير قد أبيضت لحيته، وأخذ العمر منه ما أخذ، يربت علي كتفه، ويشد علي ساعديه، ويقول له: وصلني يابني جوه عشان أصلي المغرب، يلا شد حيلك عشان ماتفوتناش الركعة الأولى طمأنينة سرت في عقله قبل جسده ودخل المسجد بمجرد أن تلامست قدماه بالسجاد المفروش، خارت قواه، واستسلم للصوت العذب الذي يقرأ القرآن. أحس أن ذلك الشئ هو ما ينقصه طوال حياته الان حياتي لماذا كل الناس تقول لي دائمًا كانت فارغة غير ملتزم؟ لماذا؟ إنه جميل يذيب الروح أجلس الشيخ الكبير، وتوجه إلي مكان الوضوء راقب حركات المتوضئ الذي بجانبه، وخرج بعدها إلي الصلاة وقف في الصف وهو يترقب كل شئ، يحاول الاستماع إلي كل همسة، يراقب حركات المصلين، يتغزل في صوت الإمام حتي كل حركة كان يقوم به المصلون يقلدها في شيء المتعة العمياء انهي الصلاه ووجد الشيخ الكبير يهديه هدية، ألا وهي دعاء صاف، لا تشوبه شائبة، صاف من كل معاني الرياء والنفاق ربنا يهديك يابني ويحافظ عليك أخذ يوسف تلك الدعوة وكأنها وجهته القادمة سار ناحية المستشفي، وقابل والده بعد أن ظهر عليه بعض علامات التوتر:

الأب: كنت فين يا يوسف كنت فين؟

يوسف: كنت في مشوار يا بابا ماتقلقش.

الأب: الحمد الله طمنتني.

يوسف: بابا.

الأب: نعم يا حبيبي.

يوسف: أنا عايزك تعلمني الصلاة.

تجمدت ملامح عوض ولكن جسده قد اقشعر لما سمعه من ابنه يوسف، هز رأسه في موافقة، وضمه إلي صدره علي الجانب الآخر من الجمهورية في الشمال كان هناك خطبة

آلاء، تبتسم تارة، تذهب إلي عالم آخر تارة هل ما فعلته كان صحيح؟ هلكان تركها ليوسف في ذلك الوقت سليمًا؟ هزها علي وهمس في أذنها:

على: مالك؟.

آلاء: مفيش يا حبيبي.

على: طيب يا حبيبتي لو عايزة ننهي الموضوع دلوقتي خلاص.

آلاء: لالالا عادي يا علي كمل احنا مش بنفرح كل يوم.

على: ربنا يخليكي ليا.

ابتسمت ابتسامة صغيرة مصطنعة، وذهبت إلي أفكارها السوداء الخاصة بها، وإن كانت الخطبة قد لعبت علي وتر قديم المال وما يستطيع أن يفعل طردت تلك الأفكار، ونظرت إلي على، وأكملت استماعها إلي الأغاني التي تجري في خلفية الخطبة.

بعد أن انتهي يوسف من صلاة العشاء مع والده قال له:

الأب: يلا يا يوسف
عشان الطيارة بكرة الصبح وعايزك تنام كويس عشان نلحقها.

يوسف: حاضر يا بابا بس احنا هنروح فين؟.

الأب: هنروح الإمارات إن شاء الله يلا ننام عشان التاكسي جاي بكرة بدري.

اتجها الاثنان إلي غرفهما، وفي الصباح الباكر، جائت داليا لتوقظه، وبعد أن استفاق حدثته للمرة الأخيره: الممرضة: مش عارفة هنساك ازاي يا واد إنت ربنا يحفظك، وماتنساش ورقة سمر ضروري يا يوسف.

يوسف: ماتقلقيش يا داليا ربنا يقدرني وأعوضلك اللي عملتيه ليا.

الممرضة: أنا ماعملتش إلا الواجب خد بالك من نفسك.

ذهب يوسف إلي كل الطاقم الذي عمل علي علاجه، وطلب منهم الدعاء احتضنهم جميع و بعدها اتجه إلي الطبيب، تبادلا الاحضان، وشد من أزره وبعدها انطلقا هو وعوض إلي المطار استقلا الطائرة، ووضع يوسف السماعات في أذنيه انتظر اقلاع الطائرة، وهو لا يفكر إلا في القرآن الذي يستمع إليه، فراغ وطمأنينة عذبة احتاجها منذ فترة علي بعد أحياء من المطار، كانت تقبع سمر في فراشها الوردي، تفكر فيه، تتسارع دقات قلبها كلما تفكر فيه لماذا هو؟ لماذا؟ أهي شفقة؟ أهي إحساس بالوحدة قد قتلها في المستشفي مما جعلها تتعلق بأقرب شخص يقع عينيها عليه؟ هي التي لم يسبق أن تبادلت مشاعر مع أحد لما كانت تجد من الشباب غير مبالي، أو بالمعني الأصح التافه، كانت لا تعطي لهم بلا ولكن يوسف مختلف، إلا أنها قد تواجه صعوبات جمة في مصارحتهما كثير أشعرت تجاه بذلك الحب لأنها تعلم آلامها مثله لا فهي ليست من النوع الذي ينخدع بالمظاهر رغم طيبتها المتناهية، إلا أنها لديها حس أنثوي دائمًا تعلم ماذا يقول ما يكون علي صواب الذي أمامها هل هو صادق أم كاذب طيب أم يصطنع الطيبة؟ برئ من داخله أم يحركه الشيطان؟ استقرت عيناها علي صورة في هاتفها المحمول، صورة ليوسف حليق الرأس، يبزغ الصليب من كتفه وآية قرآنية من الجانب الآخر ينظر حالمًا إلي سقف الغرفة التي كان يجلس فيها التقطتها له دون علمه وجدت الطيبة قد تخطت عينيه، وأطلت بظلالها علي كل الموجودات حوله، ونظرته طفل برئ، لا يعلم شيئ كأنه طفل في الخامسة منعمره، لا يعلم ماذا تخبئ له الحياة ضحكت سمر، وفي عينيها دمعات من الفرح أو الحزن، لا تعلم فقط دموع تسرب من داخل عينيها تتذكر قطعة الورق التي تركتها له يا تري سيقرأها أم سينساها؟ يا الله كن لي جانبي، احفظه في طريقه، احميه، واحفظه لي يارب دا علي نفسها أنها لن تتخلي عنه بعدما تخلي عنه كل البشر بما فيهم أصدقائه قامت بالدعاء ليوسف، وأخذت فبعد العملية نسوه، أو بالأصح أرادو الا يتذكروا إنسانًا لا يتذكرهم علمت وهي بالمستشفي اتصلًا أحد من أصدقائه، ربما كان اسمه محمود، طالب الممرضة أن توصله بيوسف إلا أنها أوصلته بالطبيب مصطفي، أخصائي العلاج النفسي.

تحدث معه، طالبه بأن ينسي صديقه حتي يتسني له أن يعيش حياه أخرى بعيدًا عن ما كان يعيشه طلب الطبيب مصطفي من محمود أن يقص عليه قصة يوسف اختصرها محمود في إيجاز وبعد أن انتهي ساله الطبيب هل تحب يوسف يا محمود؟

أجاب محمود في إيجاب بالطبع.

إذن اتركه إن كنت تحبه، لا تجره إلي حياة ليس لها طريق نهاية إلا الموت وحيدًا فقيرًا نادمًا علي ما ضاع من العمر فيها تفهم محمود الموضوع وما يطلبه الطبيب دعا ليوسف، وأحس أنه أيضًا أن البد أن يغير حياته يستفيق إلي مستقبله تلك كانت ملخص ما قالته داليا لسمر عن مكالمة صديق يوسف الوحيد أما الباقي فقد تبخر تبخر مياه المحيطات صيفًا ولذلك وعدت سمر نفسها أنها لن تتخلي عنه، ولن تتركه أبدًا ليعود الي تلك الحياه المقيته وضعت رأسها علي الوسادة، وسرحت وهي تتمتم: لم اتركك ابدًا وسانتظرك إلى الأبد ما حطيت واستغرقت في نومها وبعد مرور عدة سنوات، تخرج يوسف من كلية الصيدلة بالإمارات، وتبدل حاله من يوسف عوض الدين الذي لا يفقه شيئًا عن الدين أو الحياة، إلي الطبيب يوسف عوض الدين الذي يعطي دروس في مسجد قريب من منزله في الإمارات للشباب كان يحكي لهم ماذا كان؟ وماذا أصبح؟ كان والده في تلك السنوات قد حاول أن يغذي ذاكرته بالذكريات واللحظات الجميلة فقط ذكريات تعطي له فرصة ثانية للسعادة وبالفعل لم يترك يوسف كل تلك الذكريات السعيدة لتهرب منه، بل تمسك بها.

حكي عوض ليوسف عن الحادثة عندما كان صغيرًا في سن العاشرة سامحه يوسف لانه يعلم أنه ليس له دخل بها، وأنها كانت قضاء وقدر شرح عوض سبب ابتعاده، شرح له أنه كان دائمًا ما يشعر بالذنب تجاه ما حدث ليوسف، ولكن يوسف تفهم موقفه، ودعاه لنسيان كل ذلك، فالحياة قد بدأت لتوها.

كانت الشهور الأولى ليوسف متنقلًا بين متابعة المستشفي والأطباء والمنزل والكلية والجامع، لم يعد يريد لاي شئ بعد لان تذوق حلاوة الإيمان قرر أن يكون هو الحياة قرر الا يعيد تكرار الذي حدث له من قبل لم تجذب انتباهه أي من بنات الكلية، وإن كانت غامرة بالفتيات التي تحرك جبل إيفرست من الموضة والجمال وغيرها، إلا أنه كان يعلمها في

قرارة نفسه أن نفسه تشتاق لأخرى بعيدة، ولكن لا يعلم أسيراها مرة أخري أم لا علي الجانب الآخر في مدينة المنصورة، تعالت الأصوات في منزل علي أصوات خناق وعراك دائم لم تمر علي زيجتها سوي عامين فقد تزوجت في السنة الثالثة من الجامعة بدأت الحياة في بدايتها مثل أي زيجة حب مصطنع، لسنوات ما قبل الزواج.

في الشهرين الأوائل للزيجة، اندثرت الرغبة وحل محلها الفتور، رغبة ملحة من آلاء في انجاب طفل يضيف علي دنيتها شيئًا من البهجة بعدما ذهبت السعادة سريعًا بعيدًا عنها علي كان يخرج إلي عمله لا يعود إلا مساء سفرياته زادت وطالت مدتها حتي في نهاية الأمر ذهبا إلي طبيب لإيجاد حل للانجاب، حتي تتفاجئ بأنها عاقر انهارت ودخلت مستشفي لأمراض النفسية كانت تتذكر كل ليلة يوسف كانت تتذكر كلماته، كانت تتذكر إلي أين سيؤل بها المطاف، كسرت قلبًا أحبها تركته في محنته وها هي الآن تعاقب وتعاقب نفسها خرجت من المستشفي لتجدأن علي قد طلقها، وأرسل لهاكل ما يخصها لم يترك لها حتي الشقة أخذ كل شئ انتهي عقد حق الانتفاع الموقع وها هي الآن تجلس في شقة أبيها، تداعب أخيها الصغير وتلعب معه تذهب إلي العمل في فتور وروتين حياتي لا بنفصل عن الطبيعة البشرية للإنسان حملت لقب مطلقة رغم صغر سنها، إلا أنها تعودت عليه، وتعودت علي نظرات الجميع إليها.

لا تبالي، فهي تعلم أن كل هذا كان ذنبه، ذنب يوسف عوض الدين يا تري أين هو الآن؟ وكيف حاله؟ ليرد عليها عقلها ليس لكي الحق في أن تتذكريه، تحملي ثمن خيانتك علمت بعدها أن والدة يوسف توفت، وأُغلقت شقته، شرفته غطي عليها التراب كانت أيامًا تخرج إلي الشرفة، حتي يخيل لها أنه يجلس فيها، وينظر إليها كما كان يحدث ولكن الواقع أقسي من أي خيال، كانت الشرفة كما هي، مغلقة، يعتليها التراب تدخل إلي الشقة، تغلق غرفته علي نفسها، تتناقل بين الحوائط، في هاتفها في السقف وتاره أخري تنظر تاره تخرج سماعات الأذن، تضعها، تشغل الأغاني التي تحبها وهي تجلس في الشرفة عندما كان يراقبها يوسف كانت دائمًا تسرح بها، ولا تعبئ سوي بأن الله يعاقبها لفعلتها ترضي، وتنزل دموعها في هدوء.

في جانب آخر في كنيسة، كانت تجلس في الصفوف الأولى، شعرها متناثر في تمرد علي كتفيها، شعرها الأسود يعكس جمالها كانت سمر قد تعودت منذ لان رحل يوسف لان تذهب إلي تزورها الكنيسة التي توفت بها ليلي كل شهر، البد أن تذهب إليها، أنتهت كليه يوسف بمرتبة شرفية، تفوق دراسي و علمي و أخلاقي وديني، تقدم إلي خطبتها من العرسان مايكفي بنات مصر، إلا أنها كانت ترفض في حياء وأدب وضحكتها كانت تذيب قلوب من يتقدمون إلي خطوبتها، ضحكتها الا يقاومه إنسان الا أنها كانت ترفض تنتظره، تعلم أنه سيعود يومًا تعلم أنه يفكر بها، إلا أنها تلقي بهمها إلي الله، وتترك القدر ليأخذ مجراه.

تركت قلبها معه، والا تندم، فهو من اختاره قلبها قبل عقلها، عائلتها كانت متفهمة للغاية مما أسعدها هي في يوم من الأيام، كان يوسف يطالع بعض احتياجات العمل بعد أن عاد من شركته الخاصة التي فرح عوض جدًا عندما طلب منه يوسف أن يؤسس شركه أسسها حتي يتسني له أن يعمل بها شركة للأدوية بعد التخرج بدا اسمها في الارتقاء، وأخذ مكانة رفيعة بين شركات الأدوية وبينما هو قد صب تركيزه علي استمارات التقديم، وجد شنطة صغيرة في خزانة مكتبه، استغرب يوسف، توجه إليها، لا يتذكر أنه لديه مثل تلك الشنطة، إلا أنه ذهب وهم بفتحها، حتي تسمر إلي ما في داخلها: قطعة ورق عفي عليها الزمان، إلا أن الزمان لم ينل منها شيئ فتح الورقة وقرأ:

"إلي يوسف، بمجرد انك بتقرا الورقة دي يعني احنا مش مع بعض، وانت خرجت من المستشفي أنا أصريت انك تقرأها بعد ما تروح من المستشفي لحد ما انت تستقر وربنا يكمل شفائك يوسف أنا بحبك يا يوسف، بحبك من ساعة ما شفتك في العناية المركزة حبيت طيبتك، حبيت كل حاجة فيك، عينيك اللي مليانين حنان وبراءة مش عند أي حد، روحك جمالها كان بيحميني وأنا نايمة، كنت كل يوم بستني أجي اقعد جنبك عشان أشوفك بس بحبك ياض انت، وربنا بحبك ومستعدة أعمل أي حاجة في الدنيا عشان أبقي معاك لحد آخر يوم في عمري هستناك وعمري ما هتخلي عنك بحبك.

سمر.."

يوسف أغلق يوسف الورقة، وترك الدموع تتساقط علي الورقة تذكرها، تذكر حنانها، تذكر اعتنائها به في وقت تخلي عنه الجميع نظر مرة أخري، وجد رقم تيليفون لها، واسمها علي الفيسبوك، وفي حركة مفاجئة، اتجه إلي اللاب توب الخاص به، وفتح الفيس، وكتب اسمها، ثواني وظهر اسمها يتألألا، تناديه، تدغدغ ذكرياته، تفيض عيناه بالحب جلس، بعث لها برسالة سمر أنا يوسف، أنا كمان بحبك، واستنيني الشهر الجاي هاجي أخطبك حبيبك اللي انتي استنتيه هيحقق ليكي حلمك، وهيعوضك اللي انتي استنتيه دا كله حبيبك يوسف عوض الدين و أرسلها علي الجانب الآخر، ومض هاتف سمر في إشارة منه علي وجود رسالة تعجبت، هي لا يوجد عندها علي قائمة الأصدقاء أي شاب سوي عائلتها تنهدت لتفتح الرسالة، حتي تسمرت توقف العالم عن الدوران،أحست بالفراغ فقط، لا تسمع صوت دقات قلبها الذي تغلب بصوته علي ماكينة تحرث حقل في حقول أيرلاندا أخذت تلتهم الكلمات، لم تفهم أو تستوعب الرسالة قرأتها أكثر من مرة، حتي دمعت عيناها فرح أطلقت صرخات حب من بين جوانب قلبها وأرسلت إليه رسالة أخري بحبك يا واد ذهب يوسف لأبيه عرض عليه الموضوع في تردد، إلا أن كلمات والده أراحته تنهد عوض وهو يري ابنه يعيد كره ما قد فعله سابقًا ابتسم له، وقال: فلتتزوج ماتحب يا بني تهلل وجه يوسف، وفي سرعة البرق اتصل بشركة الطيران لحجز تذكرتين سفر للقاهرة، وأجل كل مشاريع العمل اتصل بسمر، مازال صوتها ينصب حبًا وحنانًا غير عادي وهو عند قوله هي قد عينت من الجنة لحراسته، وهو أمر ليس بالخطأ هذه المرة، بل أراد الله أن يعوضه خيرًا عن كل هذا بها بسمر لم يتحدثا منذ خمس سنوات، إلا أنهم عندما تحدثا، كأنهما يعرفان بعضهما منذ أكثر من خمسين عامًا أخذا يتحدثان ويتحدثان ويتحدثان حددًا ميعاد ذهاب يوسف لخطبتها وبالفعل مرت الأيام، وذهب يوسف إلي القاهرة مع والده تحدثا مع عائلة سمر تفهم أبدت عائلة سمر ترحيب اتفقا علي الزواج، وذهاب سمر للعيش في الإمارات مع يوسف خرج الرجلان من منزل عائلة سمر، توجهما إلي فندق لم يريد عوض أن يعيد ذكريات شقة ٥٦ سواء كانت شقته القديمة أو شقة أخري تركها لتحمل ذكريات لا يجب أن تفتح مرة أخري جاء ميعاد الزواج، جلس الاثنان العريس والعروسة كنجم ينزلا من السماء ليكون مكانهما هنا علي الأرض هي إلهه إغريقية

جميلة جمالًا ليس ببشري وهو فارس تركي من فرسان العثمانيين، يجلس علي عرش العالم، وبجانبه حبيبته علي ضفاف حمام السباحة أخذا يتراقصان يمينًا ويسارًا علي ضفاف النهر والموسيقي الهادئة كلاهما أصبح من عشاقاها بعد أن كان الميتا يغطي حياة يوسف.

يضع يده علي خصرها، ويهمس في اذنها تضحك يلفها من خصرها تقبله قبلة خفيفه علي وجنتيه حتي تحمر خجلا و يردها اليها ملئت السعادة عيونهما وعيون عائلتهما عوض يحضن يوسف، ويربت علي كتفه وهو يذكره أن والدته انها في راحة وسعادة، ليهز يوسف رأسه في أنه يعلم يطبع عوض قبلة علي جبين سمر، ويوصيها علي يوسف انتهي الزفاف الأسطوري للأمير والأميرة، ذهبا إلي الإمارات لشهر العسل.

كان شهرًا عسلًا بالفعل حب يملئ جوانب كل شئ بعدها عاد يوسف إلي العمل ليتفحص بعض استمارات التقديم للعمل في شركة وافق علي عرضها، وكان من ضمنها اسم آلاء محمود الفناجيلي، رأي أنها مناسبة للشروط، و أرسل موعد المقابلة الشخصية.

مرت الأيام ويوسف وسمر في أوج سعادتهما، يتبادلان الحب في كل شئ حتي جاء يوم المقابلة الشخصية، دخلت آلاء إلي المكتب، كان يعطيها ظهره، التف إليها لتشهق شهقة مسموعة قائله:

آلاء: يوسف.

يوسف: حضرتك تعرفيني ؟

تذكرت أنه لا يتذكرها وجدت في يده اليمني خاتم وصورة له هو وسمر علي المكتب علمت أنه تزوج أن الله قد عوضه بأخري عنها.

آلاء: لا يا فندم أنا اختلط عليا الأمر بس، افتكرت حضرتك حد تاني.

يوسف: تمام مافيش مشكلة ممكن نبتدي الأسئلة اسمك وسنك وعنوانك.

عاد يوسف ليجد سمر في استقباله بخبر لم يقوي علي الصمود أمامه، سمر تجري وتحتضنه وتهمس في أذنه:

سمر: هتبقي اب يا واد يا جوو.

هنا اتسعت عيناه يوسف، وظهرت الابتسامة علو وجهه حضنها بقوة، تأرجح بها، وقال لها:

يوسف: دا أحلي خبر سمعته في حياتي بحبك بحبك بحبك.

فاتت الشهور، استقبال الأمير عمر قرر يوسف الذهاب إلي رحلة بعدها إلي مكان بعيد به خضر في بيت ريفي في بلد أوروبي منزل يحيطه بحيرة وخضرة سافر ثالثتهما إلي الريف الإنجليزي يوسف عوض الدين، سمر يوسف، وعمر يوسف عوض الدين جلس يوسف علي شاطئ البحيرة والعشب الأخضر يحيطه من كل جانب رأي سمر وهي تحمل عمر، نادي عليها اقتربت سمر وهمس كل منهما في أذن الآخر: بحبك لحد آخر يوم في عمري..

تمت بحمدالله

للتواصل مع الكاتب:

https://www.facebook.com/profile.php?id=100053015922655